الآداب للدراسات اللغوية والأدبية | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

العدد الثاني عشر 12
ديسمبر 2021

صورة المرأة الفلسطينية في كتاب (الحياة في بيوت فلسطين: رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859م)

د. محمد ماجد الحزماوي*
mmhizmawi@yahoo.com

د. بنان محمد صلاح الدين**
bsalaheddin@staff.alquds.edu

تاريخ الاستلام: 2021/09/15م | تاريخ القبول: 2021/10/05م

الملخص:

تتناول هذه الدراسة صورة المرأة الفلسطينية بمختلف انتماءاتها الاجتماعية من خلال الرحلة التي قامت بها الرحالة البريطانية ماري روجرز إلى فلسطين أواسط القرن التاسع عشر الميلادي 1855-1859م، وقد اشتملت الدراسة على مقدمة وسبعة مباحث، تناول الأول أدوار المرأة ومهامها، واستعرض الثاني العادات والتقاليد المتعلقة بالمرأة، أما الثالث فقد تحدث عن الجواري والعبيد، وتناول الرابع تعدد الزوجات، وخُصص الخامس للحديث عن أزياء النساء، أما السادس فقد استعرض الذوق الجمالي للمرأة الفلسطينية، وتناول السابع الغرائبية والصور غير المألوفة المتعلقة بالمرأة. وخلص البحث إلى جملة من النتائج، أهمها: أن هذه الرحلة شكلت إضافة مهمة للتراث الرحلي اعتمدت في مادة معلوماتها على المشاهدة والمعاينة، وكان للمرأة الفلسطينية -خاصة الريفية- دور مهم، وشكَّلت ركنًا أساسيًا في المجتمع نظرًا لما كانت تقوم به من أعمال وواجبات تجاه أسرتها، كما اتضح أن المرأة الفلسطينية لم تكن تمتلك حرية خارجة عن المألوف من العادات والتقاليد في المجتمع الفلسطيني وإن كان ذلك متفاوتًا بين المدينة والريف.

الكلمات المفتاحية: المرأة الفلسطينية، فلسطين، ماري روجرز، أدب الرحلة، الرحالة.

* أستاذ التاريخ الحديث - قسم العلوم الإنسانية - برنامج التاريخ - كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر 2713 - الدوحة - قطر.
** أستاذ الأدب العربي الحديث المشارك - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة القدس - فلسطين.

DOI: 10.53286/2118-000-012-015

مجلة علمية فصلية محكمة
الآداب للدراسات اللغوية والأدبية
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508
12 العـدد الثاني عشر
ديسمبر 2021

The Image of the Palestinian Woman in the Book *Life in the Houses of Palestine: The Travels of Mary Rogers in Palestine and its Interior AD 1855-1859*

Dr. Mohammed Majed Al-Hizmawi *

mmhizmawi@yahoo.com

Dr. Banan Mohammed Salah El-Din **

bsalaheddin@staff.alquds.edu

Received on: 15/09/2021	Accepted on: 05/10/2021

Abstract:

This study deals with the image of the Palestinian woman in her various social affiliations through the journey made by the British traveler Mary Rogers to Palestine in the mid nineteenth century, 1855-1859 AD. The study included an introduction and seven sections. First section dealt with the roles of women and their tasks. Second section reviewed customs and traditions. Third one talked about slaves. Fourth one was on polygamy issue. Fifth section dealt with women's fashion. Sixth one exhibited the aesthetical taste of the Palestinian women. Finally, the seventh section was about the exotic and the unfamiliar images related to women. The study relied on the historical and descriptive analytical methodologies. The study concluded with a number of results, the most important of which are: the Palestinian women, especially those in the rural areas, are having basic and significant roles in the Palestinian society for what they do for their families. Also, the Palestinian women did not possess a freedom outside the usual customs and traditions in the Palestinian society.

Keywords: The Palestinian women, Palestine, Mary Rogers, Travel Literature, Traveler.

---

* **Professor of Modern History, Department of Human Sciences, History Program,** Faculty **of Arts and Sciences, Qatar University 2713, Doha, Qatar.**

** **Associate professor of Modern Arabic Literature, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Al-Quds University, Palestine.**

المقدمة:

تعد الرحلة من طرق التواصل والاحتكاك بين الشعوب والثقافات المختلفة على مر العصور، وتكمن أهمية الرحلات فيما تقدمه من معلومات عن العلوم والمعارف التي لا توجد في الوثائق، فقد وصف الرحالة رحلاتهم وتجوالهم ومشاهداتهم ودونوا انطباعاتهم، وهو ما جعل من رحلاتهم سجلًا شاملًا يتضمن جوانب معرفية متنوعة ومادة زاخرة بالوصف والأحاديث والأخبار[1].

وعلى الرغم مما تضمنته الرحلة من معارف وعلوم متنوعة، باعتبارها نصًا مفتوحًا على كافة الحقول، فإنها تبقى مرتبطة بالأدب ارتباطًا وثيقًا من خلال خصوصيتها وتجاربها المختلفة[2]. فالرحلة تحضر في نصوص أدبية بوصفها عنصرًا مهمًا من عناصرها، وتصنف هذه النصوص ضمن الأشكال الخاصة للأجناس السردية[3]. وقد شكلت المرويات السردية والوصفية والحكائية التي اشتملت عليها الرحلات نسيجًا داخليًا أضفى عليها طابعًا أدبيًا[4]؛ لذا نجد كثيرًا من الباحثين قد صنفوا الرحلة ضمن الأجناس الأدبية، وقد أشار حسين نصار إلى ذلك بقوله: "إن لم تكن الرحلة الأدبية قصة ولا رواية بالمعنى الدقيق، فهي أخت شقيقة لها"[5].

ويرى شوقي ضيف أنها تجمع بين خصائص القصة والرواية والسيرة الذاتية، فهي من "أهم فنون الأدب العربي، لسبب بسيط، وهو أنها خير رد على التهمة التي طالما اتهم بها هذا الأدب. ونقصد قصوره في فن القصة، ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدمه كتب الرحلات من قصص... مما يصور الحقيقة حينًا، ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حينًا آخر"[6].

وتتجلى القيمة الأدبية للرحلة في ما تعرضه "موادها من أساليب ترتقي بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني؛ إذ كان من أبرز ما يميز أدب الرحلات تنوع أسلوب الكتابة من السرد القصصي إلى الحِواري إلى الوصف وغيره"[7]. ولعل أبرز ما يميزها أسلوب الكتابة القصصية التي تعتمد على السرد المشوق والمؤثر للتعبيرات السهلة المؤدية للغرض[8]، فبعض الرحالة قاموا بسرد القصص التي عاشوها أو سمعوا بها من السكان في المناطق التي ارتحلوا إليها، وجاء سردهم لذلك بشكل عفوي وحيوي لتقرب الرحلة بذلك من عالم القصة[9].

وبذلك تجعل هذه الميزات من الرحلة لونًا أدبيًّا قائمًا بذاته له ميزاته وخصائصه التي تجمع القصة والرواية والسير الذاتية، كما يفيد من أدوات فنية مهمة كالصورة والقصة ما "يجعله ميدانًا غنيًا ويتيح له ذلك إيصال رسائله الفكرية والفنية على اختلافها وتنوعها"[10].

وتكمن أهمية البحث في الموضوع قيد الدراسة في أنه لم يدرس دراسة علمية مستقلة، فضلًا عن وقوف صاحبة الرحلة على عدد من المشاهد المتعلقة بالمرأة الفلسطينية؛ إذ قدمت بذلك تفاصيل مهمة عن وقائع الحياة اليومية في فلسطين اعتمادًا على المشاهدة والمعاينة.

ويسعى البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، منها:

التعرف على صورة المرأة الفلسطينية ومكانتها خلال منتصف القرن التاسع عشر. والتعرف على المنهجية التي اتبعتها الرحالة في جمع معلوماتها عن المرأة. وكذلك التعرف على مواقف صاحبة الرحلة وآرائها تجاه المرأة ومكانتها الاجتماعية.

ولتحقيق هذه الأهداف فإن البحث سيجيب عن الأسئلة الآتية:

ما الدور الذي أدته رحلة روجرز إلى فلسطين؟ وماذا كتبت في رحلتها هذه بصورة مجملة؟ وما صورة المرأة الفلسطينية من مجمل ما كتب؟ وبمعنى آخر ما هي الصورة التي ترسمها هذه الرحلة للمرأة؟ وما هي الأرضية التي انطلقت منها روجرز في رسم تلك الصورة؟ وأخيرًا ما هي ردود أفعال الرحالة تجاه الصور التي التقطتها للمرأة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات فإن البحث سيدرس صورة المرأة في سبعة مباحث، سيتطرق المبحث الأول إلى أدوار المرأة ومهامها، ويستعرض الثاني العادات والتقاليد الخاصة بالمرأة الفلسطينية، أما الثالث فسيتحدث عن الجواري والعبيد، ويتناول الرابع تعدد الزوجات، وسيضطلع الخامس بالحديث عن أزياء النساء، ويهتم السادس باستعراض الذوق الجمالي للمرأة الفلسطينية، وتناول السابع الغرائبية والصور غير المألوفة، وقبل ذلك سيقوم بالتعريف برحلة ماري روجرز، وخط سيرها، وذلك على النحو الآتي:

التعريف برحلة ماري روجرز:

بعد افتتاح بريطانيا أول قنصلية لها في مدينة القدس عام 1838 عينت وليم يانغ W.younge أول قنصل لها، ووجهت جهود هذه القنصلية لحماية المصالح اليهودية في فلسطين[11]. وقد استمر يانغ في عمله حتى عام 1845 ليعين جيمس فن J.Finn خلفًا له، وقد أخذت القنصلية خلال عهده، الذي استمر حتى عام 1862م، تشرف بشكل مباشر على حماية اليهود[12].

وفي عام 1853 عين جميس فن إدوارد إليزا روجرز مستشارًا له ثم رقي ليكون نائبًا له في مدينة حيفا، وكان روجرز قد خدم سابقًا في عدة مناصب دبلوماسية في كل من مدن بيروت ودمشق والقاهرة[13].

إن صاحبة هذه الرحلة ماري إليزا روجرز هي شقيقة إدوارد روجرز، ولعل وجوده موظفًا دبلوماسيًّا في القنصلية البريطانية في القدس وحيفا كان العامل الرئيس الذي شجع ماري للقدوم إلى فلسطين والإقامة فيها لمدة أربع سنوات تجولت خلالها في مختلف المدن والقرى الفلسطينية، وتعرفت على كثير من الأسر الفلسطينية من المسيحيين والمسلمين.

وقد تمكنت من خلال تجولها من تدوين مشاهداتها التي رصدت خلالها تفاصيل دقيقة عن الحياة اليومية للفلسطينيين بمختلف شرائحهم الاجتماعية وطوائفهم الدينية. وقد سدّت هذه الرحلة التي نشرتها باللغة الإنجليزية عام 1862، وترجمت إلى اللغة العربية عام 2013 ثغرة مهمة في تاريخ فلسطين خلال المدة ما بين 1855-1859 تمثلت بالمعلومات القيمة التي سجلتها عن الحياة الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية والسياسية لفلسطين، فجاءت حافلة بتفاصيل دقيقة عن بعض الجوانب، وخاصة ما يتعلق بالنساء في المجتمعين المدني والقروي.

لقد شكلت المرأة عنصرًا محوريًّا في بناء نص الرحلة ومكونًا أساسياً للسرد الذي قامت عليه الرحلة، ووقفت على عدد كبير من المشاهد المتعلقة بها، إذ قلما قصدت الرحالة مكانًا أو مرت به

دون أن تذكر فيه المرأة سواء أكانت الأم أم الابنة أم الزوجة أم الجارية أم العبدة، وإن ركزت كثيرا على وضع المرأة في مناطق أكثر من غيرها بالنظر لتباين الفترات التي أقامتها فيها.

وتكمن أهمية هذه الرحلة في تأكيد ماري روجرز على الجذور العميقة للشعب الفلسطيني ورسوخه في أرضه، فقد أوضحت أن فلسطين من مدن وقرى ومناطق بدوية خلال تلك المدة كانت عامرة بأهلها، وكأنها أرادت -من حيث لا تقصد- تفنيدًا مسبقًا للرواية الصهيونية، ودحض السرديات التي روجت لها الحركة الصهيونية والخطاب الذي ارتكزت عليه، والتضليل التاريخي المزيف الذي استند إلى أن فلسطين كانت أرضًا قاحلة وشبه صحراوية وخالية من السكان، وأنها أيضًا أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

كما فندت ادعاءات القنصل البريطاني "جيمس فن" الذي سخّر نفسه طوال مدة وجوده قنصلًا في مدينة القدس لخدمة اليهود وحمايتهم مدعيًّا أن الفلاحين الفلسطينيين هم "مخلوقات بشرية تعيش في حالة اجتماعية وضيعة تكاد تشبه حياة الهمج"[14]، وأن طعامهم يقتصر على الخضار والخبز وأحيانًا الأرز، وينطبق ذلك على "مساكنهم الحقيرة وأثاثهم الفج والغث"[15]، كما وصفهم بأنهم يعيشون في جهل كبير، "يؤمنون ببعض الخرافات والممارسات السلوكية من مخلفات وَثنيتهم القديمة"، حتى أنهم -من وجهة نظره- "يرتقون فوق مستوى ماشيتهم المنتشرة في الحقول، لا بل يكونون أقرب للهائم في بعض المناطق"[16].

لقد انبثقت هذه النظرة العنصرية تجاه الشعب الفلسطيني انطلاقًا من دعم الحكومة البريطانية وبخاصة وزير خارجيتها "اللورد بالمرستون "Lord Palmarston "لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وكان فن من أبرز القناصل البريطانيين الذين تعاطفوا مع اليهود ومنحهم الحماية البريطانية"[17]. كما أنه كان جزءًا من الماكنة الاستعمارية التي كانت تنظر للسكان الأصليين نظرة ازدراء وانحطاط مقارنة بالشعوب الغربية ذات الحضارة والمدنية. وانطلاقًا من هذه النظرة فقد اعتبر فن اليهود هم الأفضل مستندًا على ادعاءات التوراة بأنهم "شعب الله المختار"[18].

جاءت "ماري روجرز" لدحض ادعاءات الحركة الصهيونية دون أن تطلع على ما كان يكتبه فن عن الفلسطينيين، فقد وصفت فلسطين بأنها كانت تنعم بالنشاط البشري في المدن والقرى، فكانت أسواق المدن تعج بمختلف البضائع المحلية والمستوردة بما في ذلك الأقمشة البريطانية، أما في القرى فقد شاهدت الفلاحين يزرعون أراضيهم بمختلف أنواع المحاصيل الشتوية والصيفية، وشاهدت بيارات البرتقال المحيطة بالمدن الساحلية في حيفا وعكا، بينما شاهدت أشجار الزيتون في المناطق الجبلية. كما شاهدت في الطريق بين مدينتي يافا وحيفا قوافل الجمال المحمّلة بالشمام، حيث انتشرت حقول الشمام بأنواعه المختلفة، ما دفعها إلى القول: "وكنا أمام مشهد مفعم بالحياة للحياة العربية"[19]، بينما وصفت الحقول في إحدى القرى بأنها كانت "مزدهرة بالذرة الهندية والدُخن والسمسم والتبغ"[20].

ووصفت أرض مرج بن عامر الذي قسم إلى قطع مربعة من الأرض المزروعة والحقول؛ إذ "تبدو من مسافة بعيدة وكأنها قطع في لوحة من الفسيفساء الملونة بالبرتقالي والأصفر والرمادي والأخضر والبني والأرجواني، لا يمكن رؤية بيت أو خيمة أو قرية لكسر الرتابة المسيطرة على المشهد، ولا حتى شجرة تلقي بظلالها"، ومما يجدر ذكره هنا أن جيمس فن كان موجودًا برفقتها ليرى هذا المشهد بنفسه"[21].

أما على صعيد الطعام، فإن ما قاله فن كان عاريًا عن الصحة، فقد وصفت ماري روجرز - عندما كانت تزور الفلاحين في بعض القرى- وجبات الطعام التي كانت تقدم لها وكان من ضمنها اللحم والأرز، فقد وصفت مائدة الطعام التي قدمت لها في منزل إمام قرية كفر لام[22] بأنها تكونت من الأرز المطهو بالسمن واللحوم والبيض والخضار والزبدة[23].

خط سير الرحلة:

غادرت روجرز لندن بحرًا على متن سفينة الراين في 14 حزيران 1855 وكان برفقتها شقيقها إدوارد الذي كان قد أمضى إجازة لعدة أشهر بعد أن عمل نحو ست سنوات بوظيفة إدارية في القنصلية البريطانية في دمشق[24].

وفي 15 حزيران رست السفينة في ميناء بولون الفرنسي، ثم اتجهت بعد ذلك إلى ميناء مرسيليا، للانطلاق منها في 21 حزيران حتى وصلت شواطئ مالطا في 24 حزيران 1855[25].

وصلت روجرز وشقيقها ميناء الإسكندرية في مصر صبيحة يوم الخميس الموافق 28 حزيران، ومكثا في المدينة حتى مساء 29 حزيران حيث انطلقا على متن الباخرة تايج باتجاه مدينة يافا حيث وصلاها في 1 تموز 1855[26].

مكثت روجرز في مدينة يافا بضعة أيام حيث أقامت في مقر القنصلية البريطانية في المدينة، وخلال هذه المدة تجولت في مختلف أنحاء المدينة، وغادرت بعد ذلك متجهة برًا بواسطة الخيل إلى مدينة الرملة، ورافقها في ذلك شقيقها وشخصان أجنبيان آخران بالإضافة إلى عدد من البغّالة[27].

وبعد أن وصلت القافلة مدينة الرملة استقبلهم أحد الوجهاء المسيحيين في منزله فناموا ليلة واحدة، ثم انطلقوا في صباح اليوم الثاني متجهين نحو مدينة القدس، وقد وصفت أسواق الرملة بأنها كانت تعج بحركة الباعة والمشترين، أما بياراتها فقد امتازت بامتدادها وخصوبة تربتها، واشتهارها بزراعة النخيل[28]، ومرت القافلة من قرية يالو[29] إلى أن وصلوا إلى أسوار مدينة القدس دون أن يدخلوها حيث اتجهوا مباشرة إلى الطالبية[30] حيث كان القنصل البريطاني فن وأسرته يخيمون في هذا المكان[31]، وبعد أن ناموا ليلة انطلقوا صباح اليوم التالي متجهين إلى مدينة القدس؛ حيث أمضت روجرز فيها عدة أيام زارت خلالها أسواق المدينة وعددًا من الكنائس والأديرة وبعض المباني الحكومية[32].

وفي 17 تموز 1855 اتجهت برفقة شقيقها نحو مدينة بيت لحم، فكانت كنيسة المهد أول مكان تزوره[33]. وخلال وجودها في المدينة قامت بزيارة قرية إرطاس[34] لزيارة بعض الأسر اليهودية التي اعتنقت المسيحية وكانت تقيم على أراضي القرية[35]، ثم عادت في مساء ذلك اليوم إلى مدينة القدس فأقامت ليلة ثانية في الطالبية[36].

بقيت روجرز تقيم في مدينة القدس حتى 15 أيلول حيث انطلقت باتجاه مدينة حيفا، وكان برفقتها شقيقها الذي عُين قنصلًا فيها، ورافقتها أيضًا سيدة مسيحية من بيت لحم تدعى كاترين، وعدد من الخدم والبغّالة، وقد تولى قيادة القافلة قواس[37] مصري يدعى محمد[38]، فمروا في طريقهم عن قرية أبو غوش ثم الرملة حيث استراحوا قليلًا في منزل أحد أصدقاء شقيقها[39]، ليتابعوا السير في صباح اليوم التالي باتجاه مدنية يافا، وكان في استقبالهم لدى وصولهم القنصل البريطاني في يافا، وهو من أسرة عربية سورية تدعى الخياط[40] وبعد يومين انطلقت ومرافقها، أي في يوم الأربعاء الموافق 19 أيلول بحرًا باتجاه مدينة حيفا، وفي الطريق استراحوا قليلًا في قرية الطنطورة[41] ليكملوا الرحلة برًّا، فمرت القافلة عن قرية عتليت[42] إلى أن وصلوا مدينة حيفا ليلًا في 23 أيلول 1855، وقد وصفتها قائلة: "تحيطها أسوار متوازنة الأضلاع قابعة على مقربة من البحر وينتصب خلفها مباشرة نتوء صخري بارز من جبل الكرمل... تحد المدينة من جانبيها بساتين فاكهة غناء، مزروعة بأشجار الرمان والتين تحديدًا"[43].

أقامت في حيفا عشرين يومًا، فغادرتها في 13 تشرين الأول متجهة إلى مدينة الناصرة حيث وصلت المدينة مساءً ومكثت فيها تسعة أيام، عائدة بعد ذلك إلى مدينة حيفا ، وقبل وصولها حيفا مرّت في طريقها بقرية شفا عمرو وأقامت فيها ليلة بضيافة أحد أصدقاء شقيقها [44]؛ لتنطلق في اليوم التالي برفقة عدد من رجال قرية شفا عمر قاصدة مدينة حيفا التي وصلتها في 23 تشرين الأول[45].

أقامت روجرز في حيفا نحو أربعة أشهر لتتجه في 25 شباط 1856 إلى قرية عرّابة التي كانت تخضع لحكم عائلة عبد الهادي، وفي طريقها عرجت على قرية كفر قرع[46] لتنام فيها ليلتين بضيافة شيخ القرية[47] ثم تابعت الرحلة حتى وصلت قرية عرّابة حيث نزلت بضيافة أسرة عبد الهادي في قصرها الكائن في القلعة[48].

بقيت روجرز ومرافقيها في القافلة بضعة أيام في عرابة لتنطلق بعد ذلك باتجاه مدينة نابلس، وفي طريقها عرجت على قرية صانور[49] حيث نزلت في قلعة آل جرار بضيافة الشيخ إبراهيم جرار[50]، وبعد أن أمضت في صانور عدة أيام لم تحددها، اتجهت إلى مدينة نابلس التي أمضت فيها مدة لم تحددها في نصوص رحلتها، غير أنها ذكرت أنها غادرت المدينة في 7 آذار 1856 متجهة نحو القدس، وكانت القافلة تتكون من ثلاثة أفراد فقط وهم القواس وسائس الخيل والمترجم اليهودي في القنصلية البريطانية في القدس[51]. وذكرت أنه كان من بين القرى التي مرت بها في طريقها قريتا اللبن الشرقية[52]والرام[53] إلى أن وصلت مدينة القدس وقت غروب الشمس[54].

أقامت روجرز في القدس حتى 25 تموز 1856 لتعود إلى مدينة حيفا ، وشاهدت في طريقها عددا من القرى ذكرت منها قريتي أبو غوش والقباب[55]. ثم وصلت مدينة الرملة حيث استراحت في أحد بيوتها بضع ساعات بسبب شدة حرارة الطقس، لتغادر المدينة الساعة الخامسة مساءً متجهة نحو مدينة يافا حيث نزلت في دير اللاتين الواقع على شاطئ البحر، في الجناح المخصص لبطريرك القدس[56]، وبعد أن أمضت ليلة واحدة في يافا تابعت مسيرها عصر اليوم الثاني باتجاه حيفا، فزارت في طريقها قرية حرم سيدنا علي، فنامت القافلة فيها ليلة واحدة بضيافة شيخ القرية[57]. وفي فجر اليوم التالي تابعت مسيرها فمرت بالعديد من القرى دون أن تذكر اسم أي منها إلى أن وصلت قيسارية[58]، فاستراحت فيها بضع ساعات، ثم انطلقت إلى أن وصلت قرية كفر لام[59] حيث نامت فيها ليلة لتنطلق في فجر اليوم التالي حتى وصلت مدينة حيفا[60].

أقامت روجرز في حيفا بضعة أشهر حيث كانت تقيم في دار القنصلية البريطانية برفقة شقيقها، ثم عادت مرة أخرى فزارت مدينة الناصرة، ثم مدينة القدس التي أمضت فيها طوال فصل الشتاء[61] لتعود ثانية إلى مدينة حيفا حيث كانت محطتها الأخيرة؛ لتغادرها عائدة إلى لندن في 2 حزيران 1859[62] فتكون بذلك قد أقامت في فلسطين نحو أربع سنوات.

أولًا: أدوار المرأة الفلسطينية ومهامها

شكّلت المرأة عنصرًا مهمًا في المجتمع الفلسطيني غير أن المرأة الريفية والبدوية تميّزت عن المرأة المدنية؛ نظرًا للظروف الاجتماعية والاقتصادية التي يعيشها المجتمعان القروي والبدوي؛ لذا فقد تحملت المرأة في هذين المجتمعين عبئًا كبيرًا سواء في العمل المنزلي أم الزراعي أم أي أعمال أخرى قامت بها في الفضاء الخارجي.

ولعل من أهم الأعمال المنزلية التي كانت تقوم بها المرأةُ الفلّاحةُ تزويدَ المنزل بالمياه اللازمة للشرب والغسيل، فقد كان كثير من سكان القرى يفتقرون إلى وجود آبار مياه داخل القرية؛ لذا كانوا يعتمدون على مياه العيون والينابيع الدائمة المحيطة بالقرية التي كانت تقع غالبًا على سفوح الجبال أو الأدوية[63]. وقد وقعت مهمة إحضار الماء من هذه الأماكن على عاتق المرأة معتمدة في ذلك على جرار فخارية كانت تحملها على رأسها، فقد شاهدت روجرز عددًا من نساء قرية أبو غوش[64] أثناء عودتهن إلى القرية بعد أن ملأن جِرارهن بالماء ووصفت طريقة حملهن لجرار الماء بأنها "استقرت بإتقان على رؤوسهن"[65].

وأثناء توجهها من حيفا إلى الناصرة شاهدت مجموعات من فتيات إحدى القرى تجمع بعضهن على عين ماء ووقف البعض الآخر على منصة حجرية تحيط بالعين، بينما كانت مجموعة ثالثة تسير بانتظام واحدة تلو الأخرى على سفح التل، "وقد وضعن جرارهن المملوءة بالماء على رؤوسهن بتوازن تام"[66]. وأثناء مرورها بقرية إرطاس التقت بعدد من الفتيات اللواتي قدّمن لها ماء من جِرار فخارية وصفتها بأنها جرار "ذات تصميم عتيق"، ووصفت الماء الذي ارتشفته بأنه كان عذبًا وباردًا ما دفعها للاستفسار منهن عن مصدره فأجبنها بأنه "من البير اللي برات البلدة"[67].

صور فلاحات فلسطينيات حافيات القدمين يحملن على رؤوسهن جرار الماء

ويتفق وصف روجرز لنقل النساء المياه من العيون بجرار فخارية مع وصف كل من القس الإنجليزي ولسون Wilson,Rev.C.T والمبشر الأمريكي غرانت Elihu Grant، اللذين مكثا في فلسطين عدة سنوات أواخر العهد العثماني، فقد أشار ولسون إلى أن النساء والفتيات الفلاحات كُنّ يذهبن إلى الينابيع والآبار القريبة من قراهن لجلب الماء في جِرار فخارية أو قِرَبٍ جلدية، وكُنّ يحملن الجِرار على رؤوسهن، بينما يدلين القرب على ظهورهن بحبل يستند على جبهة الرأس، ويتم تفريغ الماء في جِرار كبيرة في الدار، غالبًا ما كانت توضع في إحدى زوايا الدار[68]. كما ذكر أن الفتيات الصغيرات كُن يعوّدن أنفسهن على هذه المهمة، فكن "يشرعن في سن مبكرة جدًا في العمل في جلب الماء في جرة

تحمل على الرأس ويبدأن بجرة صغيرة تثبت باليدين إلى أن يصبحن قادرات على حمل الجرة الثقيلة ذات الحجم الكبير دون تثبيتها باليد وتكون مائلة إلى الأمام على الرأس وتتمايل إلى الأمام برشاقة وسهولة"[69].

أما غرانت فيصف معاناة المرأة الفلاحة أثناء قيامها بذلك قائلًا: "عندما يكون النبع صغيرًا أو منخفضًا ويستغرق ملء الجرة وقتًا طويلًا فإن النساء والفتيات الصغيرات يخرجن في بعض الأحيان قبل بزوغ الفجر للحصول على الدور الأول عند مجرى الماء الضعيف"[70].

ويستنتج من مذكرات هالة السكاكيني التي كانت تسكن مع أسرتها في مدينة القدس أن نقل الماء من العيون بجرار فخارية استمر لمدة طويلة تزيد عن ثمانية عقود وربما أكثر من ذلك، فتروي أنها شاهدت أثناء زيارتها برفقة أسرتها لإحدى الينابيع في قرية عين كارم[71] النساء الفلاحات وهن "يملأن جرارهن الفخارية ذات الأشكال الجميلة بالماء. كنا نجد هناك النساء مقبلات ومدبرات وجميعهن يحملن الجرار على رؤوسهن بحذر، ويمشين بعفوية ورشاقة، والأجمل كانت الفتيات اللواتي في عمر العاشرة أو الحادية عشرة بثيابهن الفلاحية الفضفاضة وهن يحملن جرارًا أصغر على رؤوسهن"[72].

وبالإضافة إلى الاعتماد على عيون الماء للشرب، كانت النساء الفلاحات يقمن بنقل ملابس أسرهن إلى تلك العيون لغسلها، وتصف روجرز أن طريقة غسل الملابس كانت تتم بطريقة بدائية، فأثناء وجودها على عيون قرية إرطاس شاهدت عددا من فلاحات القرية وفلاحات أخريات من القرى المجاورة يغسلن الملابس دون أن يستخدمن الصابون، وتصف طريقة الغسيل بقولها: "وكن يطوين الثياب ويضعنها على بلاطات ملساء تحت حافة العين، ثم يطرقنها بحجارة مستوية يحملنها في أيديهن"[73]. ويتفق ولسون مع روجرز في هذا الوصف مع اختلاف في الأسلوب فقد ذكر أنه شاهد بعض الفلاحات اللواتي كن يذهبن إلى عيون الماء لغسل ملابس أسرتهن، أنهن كُنّ يستعضن عن الصابون ببقايا الخشب، وبنوع من الطين الرملي[74].

كما حرصت المرأة على تعليم ابنتها الطبخ في سن مبكرة وهو ما أثار استغراب روجرز أثناء وجودها في حيفا عندما التقت مع فتاتين مسيحيتين لم يتجاوز عمر الواحدة منهما 9 سنوات، وتبين لها قدرتهما على إعداد الخبز وأطباق الطعام البسيطة لدرجة أنها تفاجأت عندما علمت أنهما لم تتعلما الطبخ في الوقت الذي كان فيه الطبخ "يُعد الموضوع الأساسي في التعليم الذي تتلقاه الفتاة العربية"[75]. ووصفت كيف كانت المرأة البدوية تقوم بتحضير السمن والزبدة، وتخض اللبن لتغليه بعد ذلك على النار[76].

وخلال زيارتها لبعض الأسر البدوية التي كانت تقيم في بيوت الشَعر، وصفت روجرز طريقة إعداد الخبز، وذلك بوضع عجينة مسطحة على صفيحة حديدية (الصاج) بعد أن يتم إشعال النار تحت الصفيحة بالحطب وأغصان الشجر[77]. ومما يجدر ذكره أن هذه الطريقة ما زالت شائعة في أوساط المجتمع البدوي، ممن لا زالوا يقيمون في بيوت الشعر، بالإضافة إلى الفلاحين في القرى، وإن كان ذلك على نطاق ضيق، ويعرف الخبز في هذه الحالة باسم خبز الشراك.

وتصف طريقة أخرى للخبز عند البدو الذين كانوا يقيمون في مناطق جنوب شرق الناصرة، حيث شاهدت امرأتين كانتا تقومان بتوزيع وتحريك الجمر بأيديهما دون استخدام أية أداة "وكأن النار لا تملك القوة اللازمة لإيذائهما"، بينما كانت امرأة ثالثة تقوم برق العجين[78]. أما طريقة عمل الخبز فكانت من خلال إضرام النار في غصون الأشجار في "موقد صغير دائري الشكل مكون من حصى كروية ملساء متساوية الأحجام ترص بجانب بعضها البعض، وعندما ترتفع درجة حرارة هذا الموقد يتم إبعاد الجمر ثم تلقى العجينة بعد أن يتم تسطيحها براحتي الأيدي على الحجارة الساخنة وتغطى بسرعة بالرماد المتقد[79].

أما المرأة الفلاحة فقد كانت تعتمد في صناعة الخبز بشكل أساسي على ما يُعرف بالطابون[80] وهو عبارة عن بناء بسيط من الطين الجاف كهيئة نصف كروية، ويكون مفتوحا بفتحة دائرية من الأعلى، تغطى بعد وضع رغيف الخبز في الأرضية التي تكون مرصوفة بحصى صغيرة"[81]، وتجرى

عملية إشعال الطابون بالاعتماد على الحطب والأعشاب الجافة وروث الحيوانات[82]. ووصفت الخبز بعد إخراجه من الطابون بقولها: "تكون أرغفة الخبز لدى خروجها من الفرن مقرمشة من الخارج وطرية نسبيًا من الداخل"[83].

أما عملية طحن الحبوب اللازمة للخبز كالقمح والذرة فقد كانت تتم بواسطة رحى يدوية تتكون من حجرين مستديرين ومتساويين في الحجم يوضع أحدهما فوق الآخر حول محور، وتثبت في جانب من الحجر العلوي عصا صغيرة لإدارة الرحى، وفي وسط الحجر الأعلى فتحة صغيرة توضع فيها الحبوب لتسقط بين الحجرين[84].

صورة لنساء مقدسيات يقمن بطحن الحبوب بواسطة الرحى

وكانت المرأة تقوم بعملية الطحن خلال مدة الصباح الباكر قبل أن تشتد حرارة الشمس لا سيما أن العملية كانت شاقة وتقتضي جهدًا ووقتًا طويلًا، ووصف ولسون عملية طحن الحبوب في فترات الصباح بقوله: "وقد بات المرء يستيقظ وهو يسمع جعجعة الطواحين الحجرية في الصباح الباكر قبل بزوغ الفجر بكثير"[85]. وأكد غرانت على هذا الوصف عندما قال: "إن المرء حين يستيقظ يسمع الجعجعة الرتيبة للطواحين الحجرية والتي تخبره أن يوم العمل للنساء قد ابتدأ"[86].

أما على الصعيد الزراعي فقد وقفت المرأة جنبًا إلى جنب مع زوجها في مختلف الأعمال الزراعية، فقد كان الفلاح يهدر وقتًا طويلًا في الزراعة بالتسميد والحراثة والحصاد ونقل الحبوب ودرسها واقتلاع الأعشاب الضارة وغير ذلك مما يتطلبه العمل الزراعي، وكانت النساء يرافقن أزواجهن طوال الموسم الزراعي ويقمن بأعمال مختلفة كقطف ثمار الخضراوات والفواكه، مثل الخيار والبندورة والباذنجان والعنب وغيرها[87].

كما أوكلت للنساء مهام أخرى كتعشيب الأراضي أثناء حراثتها وإزالة الحصى الصغيرة، فأثناء توجه روجرز من نابلس إلى القدس مرت في طريقها بالكثير من القرى ووصفت فلاحيها بأنهم كانوا منهمكين في الأعمال الزراعية وكانت النساء يقُمن بإزالة النباتات البرية والأعشاب الضارة من الحقول، بينما كانت الفتيات يقُمن بجمع الحصى والحجارة الصغيرة من المساحات غير المحروثة من الأرض. وذكرت أنها شاهدت بعض أولئك النسوة وهن يعملن في الأرض ويحملن أطفالهن الرضع على أكتافهن[88]؛ لتكشف بذلك عن مدى قسوة حياة النساء الفلاحات والظروف الصعبة التي كُن يعشن فيها.

صورة لفلاحين فلسطينيين خلال موسم الحصاد

كما شاركت النساء في قطف ثمار الزيتون، فتصف أثناء توجهها من عكا إلى حيفا أنها شاهدت مجموعات من الرجال والنساء والأطفال يعملون بين أشجار الزيتون، وذكرت أن الرجال كانوا يقومون بضرب الأشجار بعصي طويلة، بينما كانت النساء والأطفال يقومون بجمع حبات الزيتون المتساقطة على الأرض[89].

وتصف روجرز خلال توجهها من القدس باتجاه بيت لحم مجموعات من الفلاحات متوجهات إلى القدس لبيع غلالهن الزراعية حيث كن يحملن على رؤوسهن سلالًا من القش تحتوي على الخضراوات والخيار والكوسا والباذنجان الذي وصفته بأنه يشبه الأجاص بلونه البنفسجي المحمر ولمعانه المميز، وكان بعضهن يحمل سلال العنب. ووصفت المنظر بقولها: "شكلت الصبايا اللاتي يحملن سلال العنب مشهدًا جميلًا للغاية، وقد تدلت الأغصان اللولبية وأوراق الكرمة على أكتافهن"[90].

صورة لفلاحات من قرى بيت لحم في أسواق مدينة القدس يحملن على رؤوسهن سلالًا من الباذنجان البتيري

وأثناء توجهها إلى مدينة يافا شاهدت الفلاحات من قرى القضاء متجهات إلى أسواق المدينة وعلى رؤوسهن سلال العنب والتوت لبيعها[91].

ويتطابق وصف روجرز مع ما وصفه ولسون الذي اعتاد خلال جولاته في مختلف أنحاء فلسطين على مشاهدة الفلاحات في طريقهن إلى أسواق المدن لبيع الخضراوات والفواكه الموسمية كالبندورة والقرنبيط والفجل والعنب والتين والخوخ والمشمش بالإضافة إلى الطيور والبيض، وذكر أن بعضهن كن يأتين من قرى بعيدة تستغرق رحلتهن أحيانًا ساعتين أو أكثر حتى يصلن إلى أسواق المدن[92].

وخلال موسم عمل ماء الورد كانت الفلاحات المقدسيات يأتين إلى أسواق المدينة في الصباح ومعهن أحمالًا من الورد، وقبل أن يصلن المدينة كن يفرغن سلال الورد في مياه عين سلوان، وقد روين للرحالة روجرز لدى استفسارها عن ذلك أنهن يقمن بذلك حتى يبدو أكثر نضارة، غير أنها لم تقتنع بذلك فذكرت أن الدافع لذلك هو من أجل زيادة وزن الورد خاصة أنه كان يباع بالوزن[93].

ومما يجدر ذكره أن فلاحات قرى القدس وبيت لحم استمررن في الحضور لأسواق مدينة القدس لبيع غلالهن الزراعية حتى مدة متأخرة، فتذكر هالة السكاكيني أن الفلاحات من قرى مختلفة في قضاء بيت لحم كن يأتين إلى أسواق المدينة خلال مدة الثلاثينات من القرن الماضي لبيع الخضراوات والفواكه، كما كن يأتين إلى دور بعض الأهالي في المدينة حتى غدا بعض هؤلاء الأهالي زبائن معروفين لتلك النسوة، فتروي أن بعض الفلاحات كانت تأتي إلى دار والدها الأديب خليل السكاكيني في حي القطمون حيث يحملن سلالًا تحتوي على الباذنجان ذي اللون البنفسجي والعنب الجندلي الذي كان يُعد الفاكهة المفضلة لأسرة السكاكيني.

وذكرت أن امرأة مسنة من قرية بيت صفافا[94] اعتادت أن تأتي لدار السكاكيني لبيع الكوسا البلدي، كما اعتادت إحدى الفلاحات من قرية المالحة[95] بيع الأسرة خلال فصل الربيع اللوز الأخضر المخملي المسمى أبو فروة بالإضافة إلى الأجاص المسمى أبو حصوة والتفاح السكري الصغير.

واعتادت فلاحة من بيت جالا[96] بيع الأسرة خلال شهر حزيران المشمش المستكاوي، بينما كانت تأتي خلال فصل الشتاء لبيع النبيذ والخل المنزليين. وذكرت أيضًا أن الأسر المقدسية ارتبطت بعلاقات حميمة وإنسانية بالقرى المحيطة بالمدينة، فتروي قائلة: "كانت أولئك النسوة الفلاحات يأتين وهن يحملن بضائعهن بفخر على رؤوسهن وكان والدي يساعدهن في إنزال تلك السلال، ثم يجلسن على الأرض مبتسمات ويدعين والدتي كي تنتقي الفاكهة والخضراوات على مهلها"[97].

وتذكر روجرز أن المرأة البدوية كانت أيضًا تأتي إلى أسواق المدن لبيع المنتجات الحيوانية كالحليب واللبن والزبدة والسمن، حيث تحرص نساء المدن خلال فصل الربيع على إعادة ملء جرار السمن بالمؤونة التي تكفي لفصلي الخريف والصيف[98].

لقد تمكنت المرأة الفلسطينية من الإسهام بدور فعال في المجتمع، فشكلت الخلية الأساسية في بناء الأسرة، وعملت جنبًا إلى جنب مع الرجل في المواسم الزراعية المختلفة، فشكلت بذلك ركنًا أساسيًّا في التنمية الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعها. وبقيت متمسكة بالعادات والتقاليد الاجتماعية الموروثة.

ثانيًا: العادات والتقاليد المتعلقة بالمرأة

تُعد العادات والتقاليد -بوصفها ظاهرة اجتماعية- الإرث الثقافي العام للمجتمع والمكونات الأساسية للثقافة، وجزءًا لا يتجزأ من التراث الاجتماعي والثقافي، فتتوارثها الأجيال لتُعبر عن هويتهم الجماعية، إذ تعكس قيم الأسلاف ومعتقداتهم وتصوراتهم الجماعية، وبها يحافظ المجتمع على تواصله واستمراره ووجوده لارتباطها ارتباطًا وثيقًا بالماضي.

تكشف نصوص رحلة روجرز عن الكثير من العادات والتقاليد المتعلقة بالمرأة لاسيما المرتبطة بالمناسبات الاجتماعية مما يجعل من هذه الرحلة مصدرًا مهمًا لما تحتويه من معلومات اجتماعية لا تتوفر في المصادر الأدبية والتاريخية، فقد كانت روجرز شاهد عيان نقلت الصورة كما شاهدتها،

وكانت المشاهدة والمعاينة من أهم مصادر المعلومات التي اعتمدت عليها الرحالة، وفي هذا السياق سيتطرق البحث إلى العادات والتقاليد المرتبطة بالأفراح والأحزان، والاستقبال وكرم الضيافة، واحتجاب المرأة عن الرجال، على النحو الآتي:

الأفراح والأحزان:

رصدت الرحالة عددًا من العادات المرتبطة بالأفراح والأحزان مقدمة في ذلك صورة دقيقة عن هذه المناسبات، مثال ذلك وصفها العادات الجارية في الأعراس في بعض المدن حيث تستمر حفلات العزوبية للعروس في الحمام لمدة ثلاثة أيام يجري خلالها توزيع الشربات والقهوة والغلايين، وكانت العروس قبل الزفاف بيوم واحد تدعو صديقاتها لمرافقتها إلى الحمام وترسل لكل واحدة كمية من الحناء وقطعا من الصابون وشمعتين، وعادة ما يكون في الحمام امرأة متخصصة بأعمال التجميل تتولى فك ضفائر شعر العروس، ثم يجري حمامها برفقة صديقاتها اللواتي كُن أيضًا يستحممن برفقتها(99).

وقد حضرت عرسًا آخر في مدينة حيفا أيضًا لأسرة الصيقلي المسيحية، وذكرت أنه جرت العادة أن تجرى أعراس المسيحيين في الكنيسة التي تخص كل طائفة، وشاهدت العروس تقف أمام الحضور مرتدية عباءة بيضاء تغطي كامل جسدها بينما كان وجهها مغطى بخمار متعدد الألوان، ويقف بجانبها العريس الذي لم يشاهدها سوى مرة واحدة عندما تقدم لخطبتها، ثم يُعطى العريس الخبز والنبيذ ليقوم بدوره بإعطاء جزء من ذلك إلى العروس، ثم يضع في إصبعها خاتمًا وبعد ذلك يقومان بالدوران في حلقات بين الحضور الذي بدوره يقوم برش العروسين بماء الورد والعطور(100).

وذكرت أن الحضور في قاعة الكنيسة كان يقتصر على النساء القريبات من الدرجة الأولى للعروسين، بينما تجلس صديقات العروس في شرفة علوية للقاعة، وبعد ذلك تتوجه العروس إلى دار أهلها بزفة تكون مقتصرة على النساء وهن يرددن الأغاني والزغاريد. وتستمر أولئك النسوة بالرقص والغناء في دار العروس حتى أن إحداهن كانت ترقص "رقصًا عنيفًا ومتواصلًا حتى بدت عليها سكرات الموت"(101).

ويرتبط بالأعراس عند الفلاحين ما يُعرف باسم "**الكسوة**" وهي الملابس التي يتم شراؤها للعروس قبل زواجها، وكان يتم شراء هذه الملابس من أسواق المدن التي اشتهر فيها بعض تجار الأقمشة الذين ارتبطوا بعلاقات وثيقة مع الفلاحين[102]. وكان الفلاحون يسيرون إلى المدن راكبين الجمال والحمير والبغال في مجموعات تُعرف بموكب "الكساية" لأنهم كانوا يدخلون المدينة في تطبيل وتزمير مع الغناء والرقص[103].

وصادفت روجرز خلال جولاتها في قرى قضاء حيفا قافلة من الفلاحين تتكون من ثلاثة عشر جملًا، حمل كل منها امرأتين أو ثلاث برفقة أطفالهن، وخلال سير الموكب كانت امرأتان تقومان بالغناء بينما تردد الأخريات من ورائهن، وأضافت أن عددًا من الرجال كانوا يحيطون الموكب وكأنهم حرس للموكب[104]. وبالإضافة إلى ملابس العروس التي كانت تتكون من الملابس الداخلية وعصائب الحرير الزاهية الألوان والمناديل والكمخ أو المخمل والثياب[105]، فقد كان أكبر الجمال محملًا بمهدين خشبيين حيث يُعد مهد الطفل من أهم مكونات الأثاث التي تجهز به العروس[106].

وروى القنصل البريطاني في القدس فن Fenn خلال مروره عام 1855م بقرية الطيرة قضاء حيفا أنه شاهد موكبًا من فلاحي القرية عائدًا من المدينة بعد شرائه كسوة العروس، ووصف الموكب بقوله: "بعد اجتيازنا في اليوم التالي للطنطورة وعتليت وعند التفافنا حول جبل الكرمل مع مغيب الشمس، بلغنا حيفا ومكثنا بضعة أيام فيها، تسنت للسيدات خلالها فرصة للتعرف على أزياء الفلاحين التي تختلف عن الأزياء السائدة في جنوب البلاد، وقد تسنت لهن هذه الفرصة بسبب الاستعدادات التي كانت تجرى لإقامة زفاف في قرية الطيرة، حيث تجمعت نسوة القرية كافة تقريبًا في مسيرة اتجهت صوب حيفا لشراء ملابس وحلي تليق بالمناسبة، وعُدن في نفس المسيرة وقد ارتدين حللهن الجديدة، التي كانت زاهية الألوان، وكن يغنين غناءً جماعيًا، وهن يمشين بسرعة على الطريق، وفعلت مجموعات أخرى من النسوة القادمات من قرية أخرى ذات الشيء، بعد ثلاثة أيام، لكنهن عدن على وقع قرع الطبول وأنغام الناي"[107].

ومن مناسبات الأفراح الأخرى التي شاهدتها روجرز ختان طفلين مسلمين في مدينة يافا، ووصفت كيف كان الناس يسيرون في مسيرة طويلة يتقدمها خيّالة يحملون رماحًا طويلة ويطلقون الرصاص من بنادقهم، وكان الطفلان المقرر ختانهما يركبان على جواد أبيض وفي أعناقهما أطواقًا من الورد. أما النساء فقد سرن بجانب الطفلين يرتدين البراقع، وكن يغنين بأصوات عالية "مجلجة من حناجرهن تشبه أصوات صهيل الخيل المعدلة بإضافة إيقاع موسيقى إليها"[108].

أما العادات المتعلقة بالأحزان، فقد شاهدت في مدينة حيفا خروج النساء المسلمات خلف الجنازة على مسافة بعيدة من الرجال[109]. وكانت بعض النساء القريبات من المتوفى تقوم خلال وجودها في المقبرة بالنواح واللطم على الصدر[110]. ويذكر كل من التميمي وبهجت اللذين تجولا في مختلف أنحاء البلاد أواخر القرن التاسع عشر أن عملية الصراخ والنواح على المتوفى كانت منتشرة في مختلف أنحاء فلسطين، فقد كانت النساء يندفعن أمام الجنائز وهن يندبن ويمزقن خمرهن، وأشارا إلى وجود ظاهرة استئجار نساء يخصصن للعويل والصراخ خلف الجنازات يطلق عليهن اسم نائحات أو نادبات[111]. غير أن هذا الأمر قد يكون مستبعدًا ولا يعتقد أنه كان دارجًا في المجتمع الفلسطيني.

وتذكر روجرز أنها شاركت خلال وجودها في حيفا في جنازة إبراهيم الصيقلي وهو مسيحي، ارتبطت روجرز وشقيقها إدوارد بعلاقات ودية مع أسرته، وكان يعمل سكرتيرًا لأخيها في القنصلية البريطانية في حيفا، فذكرت أن النساء النائحات خرجن خلف الجنازة وصولًا إلى المقبرة يشاركن أسرة المتوفى البكاء. ووصفت كيف أخذت بعض النساء بالرقص في المقبرة من شدة الحزن وهن يرددن أغاني الرثاء الذي استمر نحو أربع ساعات[112].

ومما لفت نظرها -على حد تعبيرها- خلال الموكب الجنائزي أن عابري السبيل من الرجال حرصوا على وجود مسافة بعيدة عن حشد النساء النائحات ولم يحاول أي منهم أن يختلس النظر إلى زوجة المتوفى التي كانت سافرة وحاسرة الرأس[113].

وذكرت أيضًا أن بعض النساء من القرى والمدن المجاورة كن يأتين إلى دار المتوفى لتقديم واجب العزاء؛ ما يعني وجود التضامن الاجتماعي في المجتمع الفلسطيني، الأمر الذي لاحظته روجرز بعد وفاة إلياس صيقلي الذي توفي بعد وفاة أخيه إبراهيم ببضعة أيام، حيث حضرت نسوة من مدن الناصرة وعكا وشفا عمرو وغيرها لعزاء زوجة المتوفى الذي استمر سبعة أيام.

ونقلت وصفًا دقيقًا لما كانت تقوم به أولئك المعزيات والنساء الأخريات في دار المتوفى إذ كن يجلسن في صفوف متقابلة ويقمن بالتصفيق واللطم على الصدور مع ترديد مناقب المتوفى والإشادة بشجاعته ومحبة الناس له، وذكرت أن عدد النساء الحاضرات في اليوم الذي كانت فيه موجودة في دار المتوفى بلغ ثلاثًا وسبعين امرأة، وكانت إحدى النائحات تغني بينما تردد من ورائها النساء الأخريات، وقد سجلت روجرز ما كانت تغنيه تلك النسوة ومن ذلك:

أولاده وخدامينو كانوا يحبوه

بيتو كان بيت السعادة

شفناه بيطعم الجوعان

وبيكسي العريان

ما كان يخلي الغريب نايم بالطريق

فتح بيتو لعبارين الطريق[114].

وأوضحت أيضًا أن بعض النساء كن يقمن بالنقر على رق صغير وتشاركها جميع النساء بالتصفيق المتناغم مع إيقاع الرق، كما كن يرقصن وهن حاملات سيوفا مجردة من أغمادها وموجهة إلى الأسفل بينما تحني النساء رؤوسهن إلى الأمام[115].

الاستقبال وكرم الضيافة:

ومن العادات التي رصدتها روجرز لدى النساء في فلسطين حسن استقبال الضيف وإكرامه، سواء عند الفئات الأرستقراطية أو الفقيرة، في المدن والريف ومضارب البدو. ويتضح ذلك في وجبات الطعام المختلفة وحسب إمكانيات الأسر التي كانت تزورها، ففي مدينة الرملة حيث استضافتها إحدى الأسر المسيحية التي خصصت لها غرفة في منزلها لتنام فيها برفقة خادمتين زنجيتين خصصتا لخدمتها والاهتمام بتلبية طلباتها، وذكرت أن هاتين الخادمتين كانتا تتناوبان على سكب الماء البارد والحار على يديها وقدميها بعد الانتهاء من تناول وجبات الطعام، ووصفت تفانيهما في العناية بخدمتها قائلة: "إنهما لم يدخرا جهدًا لتوفير سبل الراحة كافة لي"[116].

وفي المدينة نفسها حيث زارت منزل أحد أصدقاء شقيقها، وصفت كيف استقبلتها ورحبت بها سيدة المنزل حيث قدمت لها مشروب الليمونادة، وبعد أن طلبت روجرز أن ترتاح قليلًا بسبب عناء السفر جلست تلك السيدة إلى جانبها وأخذت تحرك مروحة يدوية من سعف النخل حتى تبعد عنها البعوض[117].

ووصفت مائدة الطعام التي قدمت لها بعد استيقاظها من النوم أنها تتكون "من القمح المغلي المغطى بالسمن المخلوط باللحمة المفرومة، بالإضافة إلى سمكة مشوية وأرز ودواجن مشوية مزينة بقطع البندورة ومحشوة بالأرز وقطع اللحم. ثم تلا الوجبة تحلية مشكلة من العنب والتمر والنشا المحلى المغطى باللوز المقشور"[118].

وأثناء زيارتها لعائلة آل عبد الهادي في قلعة عرابة، وصفت كيف أظهرت نساء الأسرة تفانيهن في خدمتها وتقديم مختلف أنواع الطعام الذي اشتمل على البيض المقلي واللبن والزبدة والمهلبية والأرز المفلفل بالسمن وفوقه قطع صغيرة من اللحم المفروم وطبق من الجوز والفواكه المجففة واللوز المنقوع بالسكر وقشر الليمون، وهي جالسة على مائدة الطعام وحدها دون بقية النساء

اللواتي وقفن حولها للاهتمام بتلبية طلباتها، كما وقفت إحدى العبدات وهي تحمل كوزًا فضيًا من الماء، وكانت "على أهبة الاستعداد لتلبية طلبي كلما رغبت بشرب الماء"[119].

وبعد أن فرغت من الأكل وضع أمامها حوض معدني (صحن كبير) وبجانبه قطعة صابون وأخذت إحدى العبدات بسكب الماء على يديها، ثم قدمت لها منشفة مطرزة بخيوط ذهبية وبللت أطرافها لمسح فمها[120]. وحظيت بالمعاملة نفسها لدى زيارتها لدار داود طنوس في مدينة نابلس حيث قدمت لها وجبة فاخرة من الطعام الذي تضمن أرزًا أصفر وعليه سيقان الطيور وقطع اللحم بالإضافة إلى اللحم المفروم والزبيب والصنوبر، وأحاطت بمائدة الطعام أطباق من الفواكه والخضراوات[121].

وخلال إقامتها برفقة شقيقها في حيفا، وصفت كيف أبدت بعض النساء اهتمامهن بها وزيارتها بشكل دائم يحملن أطباقًا من اللوز المقشر والمبروش المخلوط بالشعيرية المحمصة بالزبدة والسكر[122].

أما كرم الضيافة لدى البدو فقد وصفته أثناء مرورها ببعض مضارب البدو المقيمين في شرق مدينة الناصرة، فلدى وصولها إلى خيمة الشيخ استقبلتها امرأة عجوز قامت بفرش بساط من الصوف على الأرض للجلوس عليه، بينما حضرت امرأة وصفتها بأنها كانت في مقتبل العمر ورحبت بها، وعلى الرغم من أن الشيخ أبدى رغبته بإكرام روجرز ومن كان معها بذبح جدي تكريمًا لهم؛ فإنهم اعتذروا عن ذلك، فقدمت لها النساء وجبة بسيطة تتكون من القشطة والحليب وأرغفة من الخبز الساخن[123].

ومن الظواهر الاجتماعية التي شاهدتها روجرز الإيمان بالحجب والتمائم والعرافين، وقد لاحظت وجود هذه الظاهرة في أوساط المجتمع النسائي الفلسطيني بمختلف فئاته الاجتماعية والدينية. إذ يعتقد أن استخدام الحجب والتمائم من شأنه أن يقي من الحسد والسحر فتكون حصنًا لمن يحملها من كل شر وأذى وكانت توضع في العنق أو داخل الدار.

ولاحظت روجرز أن الحجب والتمائم انتشرت في أوساط المسيحيين بشكل ملحوظ، فأثناء وجودها في مدينة حيفا لاحظت أن جميع المسيحيين يلبسون تمائم، بل حتى الأوروبيين الذين كانوا يقيمون في المدينة أخذوا يحذون حذوهم، وكانوا يعتقدون أن تعليق تلك التمائم في أعناقهم سيحميهم من أي شر قد يحيق بهم.

وتروي أنها بعد أن غادرت المدينة في طريقها إلى القدس رافقتها إحدى السيدات لقضاء عيد الفصح في القدس، وقد أحضرت تلك السيدة من دير السيدة العذراء في جبل الكرمل تميمة وضعتها في قلادة معلقة في رقبتها، واحتوت هذه التميمة على رسومات للعذراء والمسيح عند ولادته طبعت على قماش من الكتان يعتقد أنه مأخوذ من الثوب الذي تركته العذراء على جبل الكرمل بعد أن ظهرت في رؤيا لأحد الرهبان، وذكرت أن التمائم التي كان يتم اقتطاعها من الثوب كانت تباع بأعداد كبيرة تصل للحجاج المسيحيين، ما دفع روجرز إلى أن تقول: "لا بد أن هذا الثوب كان كبيرًا للغاية ليكفي لتوزيع هذا العدد الهائل واللانهائي من الرقيّ والتمائم". ووصفت تلك التمائم بأنها كانت محفوظة في الدير بداخل مدلاة من الكريستال، وكان بعضها محاطًا بأهداب من الحرير أو بحواف مطرزة"[124].

أما نساء المسلمين فقد ذكرت أن بعضهن كن يضعن الحجب في صناديق يضعنها على خواصرهن، فتروي أنها التقت بإحدى النساء في قرية الطور شرق مدينة القدس وكانت تضع على خاصرتها صندوقًا ذهبيًا قدرت طوله بـ15سم، وعرضه بـ10سم، وكان معلقًا بسلسلة مزدوجة نقشت عليها آيات قرآنية، وفي داخل الصندوق حجاب ضد السحر والعين الشريرة[125].

وأثناء وجودها في مدينة حيفا زارت بيت أسرة مسلمة كان رب الأسرة يعمل موظفًا في القنصلية البريطانية في المدينة، وتذكر أنها شاهدت في البيت لوحة زيتية معلقة على الحائط تظهر النبي موسى عليه السلام حاملًا ألواح الشريعة، وتدلت منها بيوض النعام والفوانيس، ولدى استفسار روجرز من سيدة المنزل عن السبب في تعليق البيض أجابتها بأن ذلك من شأنه أن يبعد الهم والغم عن أصحاب المنزل[126]. وذكرت أيضًا أن نساء النّور كن يرتدين في أصابعهن خواتم ضخمة اعتقادًا منهن أن ذلك يحمي من تلبسهن بالشر[127].

لم يقتصر الاعتقاد بالوقاية من العين والحسد على الإنسان فقط، وإنما وصل إلى الحيوان أيضًا، وهو ما شاهدته في مدينة حيفا عندما امتطت مهرة بيضاء أعدت لها للتوجه إلى قرية شفا عمرو، وذكرت أن عرفها وذيلها خضبا بالحناء اعتقادًا بأنها ذلك يقي الخيل من الأمراض، كما تدلت من عنقها خرزة ياقوت زرقاء ذكر لها سائس الخيل الذي كان مرافقًا لها السبب في وضع تلك الخرزة قائلًا: "علشان تبعد عين الحسود، المهرة جميلة وبينخاف عليها تصيبها عين من صحاب العيون الحسودة اللي يمكن تؤذيه وتؤذي راكبها بنظرة واحدة"[128].

ومن الأعمال المرتبطة بالسحر ما يعرف باسم العرّاف الذي يدعي أن له القدرة على رؤية الأشياء المدفونة تحت الأرض أو في بعض الأماكن، فتذكر روجرز أنها تعرفت على عائلة عربية كانت كل إناثها يزاولن أعمال العرافة، وقد وصفتهن بأنهن كن دائمًا متوترات وسريعات الانفعال، كما أن مثل هذه الأعمال كانت تتم ممارستها بسرية وعلى نطاق ضيق حتى أن الناس الذين كانت تسألهم الرحالة عن ذلك كانوا يتحدثون إليها بخوف وارتباك[129]. ويبدو أن ذلك لاعتقادهم أن العرافين يستطيعون إيذاءهم بواسطة السحر.

كما رصدت روجرز وجود بعض الظواهر السلوكية الاجتماعية لدى بعض النساء في المدن، ومن هذه الظواهر تدخين النرجيلة أو الأرجيلة والغليون. فتذكر أنها عندما وصلت مدينة يافا التي كانت أول مدينة تدخلها لدى وصولها إلى فلسطين قامت بزيارة ابنة عم القنصل البريطاني في يافا برفقة زوجة القنصل السيدة الخياط، حيث التقت بعدد من نساء المدينة المسيحيات اللواتي كن يدخن الأرجيلة التي كانت قواريرها من الكريستال البوهيمي[130].

وعندما زارت دار ياسين الآغا أحد أعيان مدينة حيفا جلست برفقة عدد من النساء يحتسين القهوة ويدخن الأراجيل والغلايين، وتقديرًا لها أرسل لها الآغا أرجيلة خاصة من ديوانه وصفتها بأنها كانت مرصعة بالمجوهرات، علمًا بأنها عندما قدمت من لندن -على حد قولها- لم تكن تدخن وإنما تعلمت التدخين في فلسطين[131].

وأثناء زيارتها أسرة آل عبد الهادي في عرابة، جلست برفقة نساء الأسرة بعد أن فرغت من تناول وجبة الغداء فأخذت الخادمات والعبدات بتقديم القهوة والأراجيل والغلايين لسيدات الأسرة، ووصفت الغلايين بأن لها أنابيب طوعية مصنوعة من خشب التوت، تنتهي بجرة صلصالية حمراء اللون، وقدمت هذه الغلايين للسيدات المتقدمات في السن، كما قدمت ثلاث أراجيل للنساء الأخريات اللواتي أخذن بالتناوب على تدخينها. بينما قدم لروجرز أرجيلة خاصة وصفتها بأنها فائقة الجمال فتقول:

"كانت القارورة الزجاجية الملحقة بها صافية كالكريستال وقد قطعت بمهارة وإتقان، امتلأت بالماء الذي كانت تطفو فيه أوراق الورد. وكان في أعلى الأنبوب المنبثق من القارورة الزجاجية صحن فضي مثلم بمهارة، انتصب فوقه الحُق المحتوي على التمباك العجمي وقطع الفحم المحترق. غطي الخرطوم اللدن القابل للثني والشبيه بالأفعى بقماش من المخمل الأحمر الموشى بخيوط من ذهب. المبسم كان من الكهرمان الأصفر المزخرف بلون الياقوت الأحمر والفيروزي الأزرق، يمخر الدخان عباب الماء في القارورة، محدثًا فقاعات من الهواء تتولى تحريك أوراق الورد الأحمر ليعاود الصعود من جديد للأعلى عبر الأنبوب الطويل، وبهذه الطريقة كان دخان التمباك المعطر يخضع للتبريد وللتنقية قبل وصوله إلى شفتي"[132].

غير أن تدخين النساء للأرجيلة لم يكن مقتصرًا فقط على النساء خلال وجودهن في منازلهن، بل كانت بعض نساء المدن يأخذن أراجيلهن معهن خلال قيامهن بالتنزه في بعض الأماكن، وهذا يعني أن تدخين المرأة للأرجيلة لم يكن أمرًا معيبًا أو سلوكًا منتقدًا من المجتمع، فأثناء وجودها في جبل الطور شرقي مدينة القدس شاهدت عددًا من النسوة المقدسيات قدرت عددهن بمائة امرأة يتنزهن برفقة أطفالهن خارج سور المدينة بالقرب من باب الأسباط، وقد أخذن بعد أن فرغن من الأكل باحتساء القهوة وتدخين الأرجيلة[133]. مشيرة إلى أن هذا المظهر كان يُعد من المظاهر المألوفة في المدينة خلال فصل الصيف باعتباره إحدى وسائل الترفيه عن النفس[134].

وعلى الرغم من أن الرحالة تجولت في مختلف أنحاء فلسطين، فإنها لم تلحظ انتشار هذه الظاهرة في مناطق القرى ومضارب البدو، ما يعني اقتصارها على نساء المدن وبعض نساء الأرستقراطية من الفلاحين ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من ذلك أن ظاهرة تدخين الأراجيل والغلايين لم تكن شائعة كثيرًا في أوساط النساء الفلسطينيات، ومن اللافت للنظر ارتباط القهوة بتدخين الأرجيلة، ما يعني أن القهوة كانت قد اكتسبت كمشروب اجتماعي أهمية خاصة، وأن الارتباط بينهما قد شكل ظاهرة واضحة ما يجعلنا نستنتج أن القهوة وتدخين الأرجيلة أو الغليون كانت وسائل عبرت من خلالها النساء عن مكانتها الاجتماعية.

احتجاب المرأة عن الرجال:

تكشف نصوص الرحلة عن القيود الاجتماعية التي فرضت على المرأة وخاصة الاحتجاب عن الرجال وعدم مخالطتهم وإن تباينت حدة ذلك من فئة إلى أخرى.

وقد لاحظت روجرز أن بعض الدور في المدن أو قصور الأرستقراطية الحاكمة سواء في المدن أم في القرى قد اشتملت على جناح خاص للحريم، وقد بنيت تلك الأجنحة التي عُرفت باسم الحرملك بطريقة هندسية بحيث لا يستطيع الرجال الغرباء رؤية النساء، فكان للحرملك خصوصية عالية تتمثل بمداخله المنكسرة، ويجري تعلية الجدران بشرفات من الكرانيش التي تتشكل من طبقة أو طبقتين تتكون كل منهما من مثلثات مشكلة من صفوف من الجرار أو الأنابيب؛ وذلك لتوفير الخصوصية لساحة الدار أو القصر[135]، ووصفت روجرز الحرملك في قلعة آل جرار بقرية صانور بأنه كان القسم الأكثر أمانًا وتحصينًا، وكان يتكون من ثلاث غرف تطل على ساحة مربعة[136].

أما الحرملك في قصر آل عبد الهادي في عرابة فقد وصفته قائلة : "وقادوني عبر قسم النساء، وأخذت إلى غرفة عقد فسيحة الأرجاء ذات جدران بيضاء وأرضية حجرية يدخل النور إليها عبر الباب المفتوح فقط لعدم استخدام الزجاج لتغطية النوافذ بالمصاريع الخشبية"[137].

صورة جناح الحريم (الحرملك) في أحد قصور آل عبد الهادي في عرابة

ولدى زيارتها لقصر محمود عبد الهادي قائمقام نابلس في مدينة نابلس، لم تتمكن من الصعود إلى الحرملك والالتقاء بنسائه، حيث تمت استضافتها في ديوان القصر الواقع في الطابق الأرضي، وذكرت أنه لم يبذل "أدنى جهد لإقناعي بالبقاء لرؤية حريمه"، وتعزو ذلك إلى خوفه من قيامها بكشف أسرار بيته أو رسم وجه أي من زوجاته لا سيما أنه كان متزوجًا من فتاة شاهدتها روجرز خلال زيارتها لقصر الأسرة في قلعة عرابة ووصفتها بأنها آية في الجمال، كما أن جناح الحرملك في قصره في نابلس كان يضم زوجاته وعدداً من الجواري الفاتنات والصغيرات في السن اللواتي

أحضرهن من استانبول[138]. وذكرت أن الديوان الذي استضافها فيه كان مخصصًا للرجال فقط ولم يسمح للنساء، حتى نسائه من دخوله، فذكرت أنه حاول مجاملتها مُرحبًا بها في ديوانه مخاطبًا إياها بقوله: "كثير شرفتينا بزيارتك يا ستي، هذا الديوان اللي ما دخلته حرمة من قبل على حسابك"[139].

لقد امتازت المرأة المدنية بالاحتشام والالتزام في بيتها وعدم الخروج إلى الأسواق، فتذكر روجرز خلال وجودها في مدينة حيفا أن النساء في المدينة لم يخرجن من بيوتهن إلا للسير خلف الجنائز[140]. وقد حكمت على ذلك من خلال مشاهدتها لجنازتين في مدينة حيفا إحداهما لمتوفى مسلم والأخرى لمتوفى مسيحي، توفيا بسبب انتشار مرضي الكوليرا والجدري، فقد شاهدت جنازة شاب مسلم يبلغ من العمر 24 سنة توفي بسبب مرض الكوليرا، وكان يتبع الجنازة عدد من الرجال وخلفهم نحو خمسين امرأة يبكين وينتحبن ويصرخن في لوعة وأسى[141]. أما الجنازة الثانية فكانت لشاب مسيحي توفي بسبب مرض الجدري حيث شاركت النساء في الجنازة وهن يمشين خلف الرجال[142].

لم تكن روجرز موفقة في حكمها على المرأة الفلسطينية مسيحية كانت أم مسلمة وكأنها كانت دائمًا حبيسة البيت لا تخرج إلا في السير خلف الجنائز، فهذا حكمٌ قاسٍ على المرأة، وكأنها أيضًا تعيش منعزلة تمامًا عن مجتمعها.

وذكرت أن الرجال المسلمين كانوا حريصين على عدم ظهور المرأة أمام الرجال، ولم يتعودوا على رؤية نساء غير زوجاتهم وجواريهم وخادماتهم، وقد حرصت روجرز على معرفة السبب من خلال الرجال الذين اجتمعت بهم في المدينة عندما خاطبتهم بقولها:

"لا يوجد قانون مقدس وملزم يمنعهم من الالتقاء بنساء من خارج وسطهم العائلي، وإذا وجد مثل هذا القانون فلن أطلب منكم عصيان نصوصه بل سأساعدكم على احترامه وأحتجب عنكم". وكانت إجابتهم على ذلك أن العادات والتقاليد هي التي تجبر المرأة على البقاء حبيسة في أجنحة الحريم.

وكان مما قاله لها محمد عبد الهادي قائمقام عرابة الذي كان وقتئذ موجودا في حيفا: إن نساءنا "لسن مؤهلات تمامًا للخروج للمجتمع في الوقت الراهن، ولن يعرفن كيفية التصرف أمام الغرباء، وإذا منحناهم حريتهم مش راح يعرفوا يتصرفوا فيها، رؤوسهن مصنوعة من الخشب مش مثلك لما تحكي بننسى إنك امرأة وبنحس حالنا عم نسمع كلام واحد شيخ، المعرفة والحكمة ضروريين مشان يعيش الواحد في هاي الدنيا، نسواننا وبناتنا ما عندهم لا معرفة ولا حكمة، خليهم حكيمات بنعطيهم حريتهم ساعتها"[143].

غير أن هذا التبرير إذا كان صحيحًا كما ذكرت ليس مقنعًا، فأصول محمد عبد الهادي ريفية من قرية عرابة، فالفلاحات بشكل عام كن يخرجن لمساعدة أزواجهن للعمل في الأراضي الزراعية خلال المواسم الزراعية المختلفة. فيروي القنصل البريطاني فن الذي كان مرافقًا لروجرز في الطريق من نابلس إلى القدس أنهم لدى مرورهم بقرية حوارة[144] لحقت بهم فلاحتان وطلبتا منهم الحماية من حصادين كانوا يعملون بحصاد محصولهم الزراعي، وكان برفقة هؤلاء الحصادين امرأة عجوز تصرخ على أبنائها أن يسلبوهن مقتنياتهن، وقد هدد الحصادون فن وجماعته بأخذ الدواب التي كانوا يستعملونها لحمل أمتعتهم بسبب حمايتهم للمرأتين، غير أنهم لم يفعلوا ذلك، وسارت المرأتان برفقة القافلة حتى وصلت إلى قرية اللبن، وحاولت هناك مجموعة من نساء القرية الموجودات بالقرب من عين ماء بالقرب من خان اللبن الاعتداء على المرأتين غير أن فن وجماعته حموهن من ذلك ما دفع أولئك النساء إلى كيل الشتائم واللعنات عليهم لحمايتهم المرأتين[145]. وذكرت روجرز أن هاتين المرأتين كانتا قد قصدتا مدينة نابلس بحثًا عن استشارة طبية[146].

ويضيف فن أن إحدى النساء من القرية نفسها جاءت إلى العين لملء جرتها بالماء وقد سألت فن عن أحوال الحرب الدائرة، فرد فن ببعض التفاصيل المتعلقة بحرب القرم، غير أنها لم تستوعب ما كان يقوله عن ذلك، وبعد بضع دقائق من الصمت صرخت قائلة: "ليس هذا ما أرغب بمعرفته، أنا أسأل عما إذا كان قاسم الأحمد قد انضم لآل طوقان أم لآل عبد الهادي، وتقصد بذلك الحرب

الأهلية في جبل نابلس، ويعلق فن على ذلك قائلًا: "كان العالم بأسره بالنسبة لها ينحصر في جبل نابلس، وكانت فكرتها عن الحرب لا تتعدى ارتباطها بالنزاعات الفصائلية والعصبية لأن قريتها وأقاربها كانوا طرفًا متورطًا فيها"[147].

تكشف هاتان الحادثتان عن أن المرأة الفلاحة كانت تسافر من قريتها إلى المدينة دون أن يرافقها أي من الرجال، ولا شك أن في ذلك مخاطرة بالنظر لعدم توفر الأمان في الطريق، كما أن ذهاب المرأتين وحدهما إلى نابلس لزيارة الطبيب تظهر مدى اعتماد الأسرة الريفية على المرأة وما كان يقع على كاهلها من عبء أسري ثقيل. أما المرأة التي استفسرت من فن عن أوضاع الحرب فيستدل من هذه الرواية أن المرأة الفلاحة كانت تتمتع بشخصية قوية ولم تكن محتجبة عن الرجال حتى الأجانب منهم، علاوة على أن اهتمامها لم يكن مقتصرًا على شؤون الأسرة والمنزل وإنما تعدى ذلك للاهتمام بالأوضاع العامة للمنطقة التي تعيش فيها، ما يعكس أن المرأة الريفية لم تكن تعيش في حالة من العزلة الاجتماعية.

وقد يكون ما أورده عبد الهادي عن نساء الأسرة من أنهن يفتقدن للمعرفة والحكمة صحيحًا، بالنظر لحالة العزلة الاجتماعية التي يعشنها، مما أدى إلى إيجاد نمط خاص في تفكيرهن، ويستدل من طبيعة الأسئلة التي وجهتها نساء آل عبد الهادي لروجرز على سطحية تفكيرهن الذي يستند على ملكية الأرض والثروة والوجاهة الاجتماعية، فتذكر أن إحدى النساء سألتها قائلة: "كم جمل عند أبوكي؟ وعندما أجابت بأن والدها لا يمتلك جِمال وأن الجمال الموجودة في لندن تعيش في حدائق عامة ليتفرج عليها الناس، أبدين استغرابهن وأخذن يضحكن بصخب، وسألتها امرأة أخرى قائلة "زيتونات أبوكي كبار وبيدرن؟ فأجابتها روجرز: "أبوي ما في عنده زيتون"، ثم سألتها تلك المرأة: "أبوكي عندو ذهب، بعطيكي ذهب وألماظ؟ ثم حاولت إحداهن إقناعها أن تزوجها شقيقها الذي كان يعمل قاضيًا في محكمة نابلس ومتزوجًا من ثلاث نساء، وحاولت إغرائها بأنه سيحبها لأنها بيضاء، وسيدفع لوالدها مهرًا من الليرات الذهبية والجمال"[148].

لقد استنتجت روجرز من هذه الأسئلة نمط تفكير المرأة الأرستقراطية المسلمة وبخاصة الفلاحات مقارنة بنمط التفكير لدى المرأة الأرستقراطية المسيحية التي وصفتها بأنها امتازت بالرقي والثقافة دون أي تأثير للحضارة الأوروبية، بينما اختلفت المرأة الأرستقراطية المسلمة من حيث الرقي والتمدن، حيث يطغى عدم التمدن على أسلوبها في البذخ والفخامة[149].

ويستدل من خلال الكثير من المشاهدات التي رصدتها روجرز أنها لم تكن دقيقة بقولها: إن النساء لا يخرجن إلا خلف الجنائز، فالمسلمات والمسيحيات في المدن كن يخرجن وإن كان ذلك في مناسبات معينة، فعلى صعيد المرأة المسلمة ذكرت أنها زارت أحد أجنحة الحريم لأسرة مسلمة كان رب الأسرة متزوجًا من أربع نساء وكان يسمح لهن بالذهاب إلى الحمامات التركية وزيارة أجنحة الحريم في بيوت أخرى[150].

وتروي روجرز خلال لقائها مع زوجة محمد عبد الهادي في حيفا أنها أبدت لها خشيتها من أن زوجها يبحث عن زوجة جديدة، وقد أبلغتها أنها علمت بذلك من بعض النسوة خلال وجودهن في الحمامات التركية[151]. ولعل أهم ما يمكن استنتاجه من ذلك ذهاب النساء إلى الحمامات وتبادلهن للأحاديث وسرد الأخبار. كما يستدل أيضًا مما أوردته روجرز لدى حديثها عن بعض العادات المتعلقة بالزواج ذهاب العروس برفقة صديقاتها إلى الحمام العمومي في اليوم الذي يسبق يوم الزفاف[152]. وقد تستمر حفلات العزوبية للعروس في الحمام في بعض الأحيان ثلاثة أيام متتالية[153]. ما يعني أن الحمامات العمومية لم تكن مقتصرة فقط على الاستحمام والنظافة وإنما كانت أيضًا مؤسسات اجتماعية تقام فيها الاحتفالات لتغدو بذلك جزءًا مهمًا من حياة الناس وخاصة النساء.

وتُناقض روجرز نفسها مرة ثانية بالقيود المفروضة على المرأة وعدم خروجها إلا خلف الجنائز، فعندما توفي أحد المسيحيين في مدينة حيفا ذكرت أنه قدِم إلى بيت العزاء عدد من النساء من القرى المجاورة ومن مدينتي عكا والناصرة[154]. ويعني ذلك أن خروج المرأة لم يكن مقتصرًا على

المكان الذي تقيم فيه وإنما كانت تنتقل إلى مكان آخر، وأن الأمر لم يكن مقتصرًا على العزاء فقط، بل أيضًا المشاركة في مناسبات الأفراح خاصة إذا كانت هناك علاقات قرابة.

وقد يكون لمدينة حيفا وغيرها من المدن الساحلية خصوصية أكثر من المدن الداخلية بحكم موقعها على الساحل واحتكاكها بالوافدين من تجار وزوّار وحجاج أوروبيين ما يؤدي إلى تأثر مجتمع المدن الساحلية بالخارج، فتذكر روجرز أن بعض النساء المسيحيات في حيفا اعتدن الذهاب إلى الكنيسة. وكن يجلسن دون براقعهن عندما يقتصر الحضور على المسيحيين، بينما عندما يدخل زائر مسلم كن يتلاشين عن الأنظار[155].

وحضرت روجرز أثناء وجودها في حيفا حفلة تعميد أحد الأطفال في كنيسة اللاتين[156] حيث حضر الحفل النساء والرجال، ووصفت النساء أنهن ألقين مناديلهن وأغطية رؤوسهن على أكتافهن لتظهر عيونهن ووجوههن وحليهن[157].

غير أن المرأة المسيحية في المدن الداخلية كانت أكثر احتجابًا عن الرجال، فتذكر أن المرأة النابلسية سواء أكانت مسلمة أم مسيحية لا تدخل أسواق المدينة، فخلال تجولها في الأسواق التقت بأحد التجار الذي وصف لها استغراب الناس وجود امرأة في الأسواق وهي سافرة بحرية إذ لم يكن يسمح لنساء المدينة بالتجول في الأسواق لأن ذلك يعد أمرًا معيبًا للأهل ويجلب لهم العار، فمما قاله لها: "نسواننا بيدخلوش البازار أبدًا، هيك عملة بتعيبهم وبتجيب لهم العار"[158].

غير أن حالة المرأة في القدس تختلف عن نابلس، فالنساء المقدسيات المسيحيات والمسلمات على حد سواء كن يخرجن من منازلهن للتنزه خارج أسوار المدينة ويقمن بتدخين الأرجيلة أمام أعين المارة[159]، ومن الممكن أن يكون ذلك ناتجًا عن احتكاك وتأثر المجتمع المقدسي بالحجاج المسيحيين الذين كانوا يزورون المدينة لزيارة الأماكن المسيحية المقدسة، كما أن القدس ضمت أبناء الطوائف الدينية الثلاث ما يعني وجود حالة من التأثر والتأثير في أوساط المجتمع المقدسي بمختلف طوائفه الدينية وفئاته الاجتماعية.

ثالثًا: الجواري والعبيد

يُعرّف الرّق بأنه حرمان الشخص من حريته الطبيعية، وصيرورته ملكًا للغير[160]. ويكون العبد على خادمًا يعتبر كفرد من أفراد الأسرة التي يعيش فيها[161].

لقد وجدت ظاهرة الرقيق والجواري في المجتمعات قبل ظهور الإسلام، فقد كان الاسترقاق منتشرًا عند الجاهليين والشعوب الأخرى، وكان الرق دعامة ترتكز عليها جميع نواحي الحياة الاقتصادية في المجتمعات، وعندما جاء الإسلام أقرَّ ذلك ولكن ضمن أسس محددة من شأنها أن تضمن الارتقاء بالكرامة الإنسانية وصيانة هذه الفئة من الذل والظلم والإهانة[162].

لقد عمد كثير من الرحالة إلى تقديم ملامح عامة لصورة الجواري والخدم من الرقيق في المناطق التي زاروها، وتكشف رحلة روجرز عن هذه الفئة في المجتمع الفلسطيني وخاصة المدن، وتزودنا بمعلومات قيمة عنها لا سيما أن الرحالة خلال تجوالها في مختلف أنحاء فلسطين كانت تحل ضيفة على الكثير من الأسر، ما أتاح لها الفرصة للاطلاع على أوضاع هذه الفئة عن قرب.

رصدت روجرز المهام التي أنيطت بالعبيد من النساء كالأعمال المنزلية وخاصة غسل الملابس والأواني[163]، وتحميص حبوب البن ودقها وتحضير الطعام للكبار والصغار ورعاية الأطفال، فخلال وجودها في قلعة آل عبد الهادي في عرابة شاهدت إحدى العبدات تستيقظ في الصباح الباكر لتحضير طعام الأطفال المسمى بالعصيدة المكونة من الخبز والحليب والسكر والزيت[164]، وكانت العبدة أيضًا تقوم برعاية الأطفال ومساعدة الأم في رضاعة طفلها خلال الليل[165].

ولدى زيارتها دار أحد الأعيان المسيحيين في مدينة يافا، ذكرت أنه كان لديه عبدتان زنجيتان، وقد وصفتهما بأنهما كانتا حافيتين وذواتا قوام طويل ورشيق وطلعة بهية وشعر أسود طويل، وبعد أن انتهت روجرز من تناول طعام العشاء أخذتا بالتناوب على سكب الماء الحار والبارد على يديها وقدميها[166]. كما شاهدت خلال وجودها في إحدى ساحات المدينة عددا من الفتيات الزنجيات يقمن

بغسل الملابس، ولدى مشاهدتهن لروجرز قمن بمسك يدها وتقبيلها ثم وضعها على جبهاتهن وقد أبدت روجرز دهشتها واستغرابها من هذه الطريقة التي لم تشاهدها من قبل[167].

ومن الأعمال الأخرى التي تولت بعض العبدات القيام بها التطريز وهو ما شاهدته روجرز خلال وجودها في دار إبراهيم صيقلي في حيفا إذ كان لدى زوجته عبدة تقوم بأعمال التطريز[168].

وتصف طريقة التعامل الإنساني للنساء الفلسطينيات اللواتي يمتلكن عبيدًا وخدمًا ، أن نساء آل عبد الهادي كن ينمن مع العبدات والخادمات في غرفة واحدة[169]. وعندما كن يدخن النرجيلة كن يتناوبن على تناول أنبوبها بما في ذلك الخادمات[170]. غير أنه لم يكن يسمح لهن بتناول الطعام مع سيداتهن، فتذكر أنه عندما قدم لها طعام الغذاء أخذت تأكل وحدها دون أن يشاركها أحد من النساء، ولا شك أن ذلك كان من باب التقدير وحُسن الضيافة، وبعد أن انتهت من الأكل جلست نساء الأسرة وأطفالهن بينما بقيت الخادمات والعبدات ينتظرن حتى فرغ الجميع من الأكل، ثم جلسن "يأكلن وحدهن، ووصفت روجرز طريقتهن في الأكل بأنهن يأكلن بسرعة وشراهة عجيبتين اختفت معها آثار الطعام من السدر بشكل مذهل"[171].

وكشفت روجرز عن إنسانية بعض السيدات تجاه عبداتهن، فقد كان لإحدى سيدات حيفا عبدة قامت بتأجيرها لأحد تجار مدينة عكا، وعندما علمت تلك السيدة أن العبدة أصيبت بمرض الحمى، ذهبت لزيارتها ونامت بجانبها ليلتين متواصلتين وهي تعتني بها ولم تتركها إلا بعد أن تشافت من المرض، وبعد ذلك أعلنت تلك السيدة عن عتقها لعبدتها وأوصت بأن يخصص لها جزء من ميراثها، وأصبحت تلك العبدة حرة تتقاضى رابتها الشهري من التاجر العكاوي بشكل مباشر، وتروي روجرز أنها سألت تلك العبدة بعد يومين من عتقها عن مشاعرها بعد أن أصبحت حرة فأجابتها قائلة: "أنا حرة وأنا سعيدة لكنني لا أعرف ما الذي يجعلني أشعر بالسعادة، أنا البنت نفسها التي كنتها في الماضي، وأنا أعمل وأعيش كما كنت في الماضي"[172].

وبالإضافة إلى الأعيان والتجار الأثرياء، فقد كان لدى بعض الأسر المقدسية عبيد من الذكور وخادمات من الإناث، فتروي روجرز خلال إقامتها في جبل الطور[173] أنها شاهدت نحو مائة امرأة مقدسية يجلسن ويتنزهن مع أطفالهن في ظل أشجار الزيتون بالقرب من باب الأسباط الواقع في الجهة الشرقية للمدينة خارج سور البلدة القديمة، وكان برفقتهن عدد من الخادمات الحبشيات يقمن برعاية أطفالهن، وأضافت أنها شاهدت أيضًا عددا من العبيد الذكور ورجحت أنهم من الأحباش حضروا إلى المكان ومعهم أطباق من الطعام سلموه للعبدات المرافقات لتلك النسوة[174].

وعلى الرغم من التباين القليل في بعض العادات والتقاليد الاجتماعية بين نساء الريف والمدينة، فإن المرأة الفلسطينية بصفة عامة بقيت متمسكة بالعادات والتقاليد السائدة في مجتمعها لما تشكله من انعكاس لهويتها الاجتماعية والثقافية.

رابعًا: تعدد الزوجات

رصدت روجرز عددًا من حالات تعدد الزوجات وإن كانت قليلة اقتصرت على فئة اجتماعية تمثلت بالأعيان والوجهاء، ممن أتيحت الفرصة للرحالة بزيارة دورهم ودخول أجنحة الحريم فيها، فكانت فرصة لها للاطلاع على الوضع الأسري فيها، غير أن ذلك لا يعني انعدام هذه الظاهرة لدى الفئات الأخرى من أهل المدن والقرى والبدو.

كان من أجنحة الحريم التي زارتها جناح الحريم في دار الشيخ عبد الله من قرية كفر قرع قضاء حيفا، فقد ذكرت أنه كان متزوجًا من أربع زوجات كن يعشن كما ذكرت "سوية برضا وسعادة تامة"[175]، وتذكر لدى لقائها بالزوج الذي وصفته بأنه كان ما زال في ريعان الشباب أنه قد تزوج سبع نساء، حيث كان يحتفظ بالعدد الذي تسمح به الشريعة الإسلامية من الزوجات، أي أربع زوجات، وفي حالة وفاة إحداهن يقوم بالزواج من امرأة جديدة مراعيًا في ذلك أن تكون زوجاته من مناطق مختلفة وبعيدة بحيث يكون من الصعب اتصال أي منهن بذويها، مشيرة إلى أن ثلاثا من زوجاته كانت إحداهن من نابلس والأخرى من دمشق والثالثة من صيدا.

ويتضح أن الشيخ عبد الله كان ذكيًا في هذه السياسة فالخلافات العائلية تنعكس على الزوجات اللواتي ينتمين لنفس القرية أو لعائلة واحدة[176]. ووصفت علاقة الزوج بزوجاته وعلاقاتهن مع بعضهن البعض بقولها: "كن يحظين بمعاملة حسنة، كما كان يسمح لهن بالذهاب إلى الحمامات العامة وزيارة أجنحة الحريم لأسرة أخرى ولكن مع توفير الحراسة المناسبة لهن[177].

ومع إلى انتمائهن لمناطق مختلفة ونائية فقد كن يتعاطفن بعضهن مع بعض بوصفهن غريبات في مكان غريب وناءٍ، إذ لا يوجد بين عائلاتهن خلافات قديمة قد تؤثر على علاقاتهن فيما بينهن [178].

وأسرّت تلك الزوجات إلى روجرز بعض الأمور الخاصة المتعلقة بطريقة تعامل زوجهن معهن، فقد كن يحصلن على الحظوة والمكانة الخاصة بالتناوب إما لعدة أيام أو لأسبوع بحيث تمنح صاحبة الحظوة لقب "حاملة المفاتيح"، إذ ترتدي خلال "مدة حكمها القصيرة المؤقتة، أفضل ثيابها وتكون سيدة قاعة الجلوس والمرأة المفضلة عن سيد الحريم"، بينما تتولى الزوجات الثلاث الأخريات مختلف الأعمال المنزلية[179].

وتصف قوة شخصية الشيخ عبد الله وهيبته عند نسائه، فتذكر أنه دخل ذات مرة على جناح الحريم وجلس بجانبها دون أن تجرؤ أي من زوجاته الجلوس قبل يأمرهن بذلك، وأخذن يتسابق على خدمته بوضع المساند وتقديم الشربات، بينما استحوذت المحظية منهن "على شرف إعداد وإشعال غليونه"، وعلى الرغم مما ظهر لديه من هيبة فإنه "كان من خلال حديثه معهن مؤدبًا وحنونًا"[180].

وشاهدت الرحالة الطريقة نفسها خلال وجودها في جناح الحريم في دار صالح عبد الهادي قائمقام حيفا الذي كان متزوجًا من ثلاث نساء، فلدى دخوله عليهن وقفن هن وخادماتهن احترامًا وبقين واقفات حتى جلس، وأثناء جلوسهن في أماكنهن أخذن بتحيته بوضع أيديهن على جباههن بحركة رشيقة وسريعة بينما قام الأطفال بتقبيل يديه ثم أخذن بتحضير غليونه والوقوف على خدمته وتلبية طلباته[181].

وعلى الرغم من حالة الانسجام والتآلف الذي لمسته الرحالة بين زوجات الشيخ عبد الله الأربع، فإن ذلك كما تقول ربما كان حالة استثنائية، وقد استندت في ذلك على ما شاهدته خلال زيارتها لأجنحة الحريم لدى أسر أخرى تعددت فيها الزوجات حيث لاحظت وجود خلافات وكره بينهن، وكان يتجسس بعضهن على بعض، وكثيرًا ما كانت تنشب بينهن خلافات بسبب الغيرة المرتبطة بجنس المواليد، فالزوجة التي لا تنجب سوى الإناث كانت تنظر بعين الحسد والغيرة للزوجة التي ترزق بمولود ذكر، الأمر الذي يضطر الزوج تجنبًا للمشاكل أن يبحث عن بيت أو أكثر يخصص لكل زوجة[182].

حيث لاحظت أثناء زيارتها لجناح الحريم في دار صالح عبد الهادي للمرة الثانية، أنها وجدت إحدى زوجاته التي كانت أصغرهن سنًا قد انتقلت مع طفلتها للإقامة في منزل آخر[183]. وعلى الأرجح أن ذلك كان ناتجًا عن وقوع خلاف بين تلك الزوجة والزوجتين الأخريين .

ولدى زيارتها لجناح الحريم في قلعة جرار بقرية صانور التقت بزوجات إبراهيم جرار الثلاث، غير أنها لم تذكر طبيعة العلاقة بينهن وربما لم تتح لها الفرصة الكافية للتعرف عليهن ومعرفة علاقاتهن فيما بينهن، غير أنها وصفتهن بأنهن كن صغيرات في السن، وجميلات: "ضحوكات ويتمتعن بمرح يجعلهن يتصرفن كأطفال سعداء"[184].

خامسًا: أزياء النساء

تنوعت أزياء المرأة الفلسطينية وتعددت وِفقًا لمكانتها الاجتماعية وحالتها المادية مما أضفى على أزيائها طابعًا مميزًا، كما يتضح من خلال أسماء بعض الأزياء انتقال المؤثرات العثمانية إلى زي المرأة الفلسطينية.

وعلى الرغم من تنوع أزياء النساء واختلافها من منطقة إلى أخرى وتباينها بين الريف والمدينة، فإن معظمها كان مصنوعًا من الأقمشة الصوفية والقطنية المحلية أو المستوردة من بعض البلدات الأجنبية وخاصة بريطانيا، أو بعض المدن العربية كالقاهرة ودمشق وحلب وبيروت[185].

فقد اشتهر القطن النابلسي بأنه كان من أجود أنواع القطن في بلاد الشام، ولقي بسبب نوعيته رواجًا واسعًا في أسواق مدن بلاد الشام[186]. كما أن البدو والفلاحين كانوا يزودون الأسواق المحلية بالصوف، بينما كانت مواد الصباغ كالعصفر والنيلة والسماق تستنبت في ريف نابلس وبيسان وأريحا[187].

ورغم تباين ملابس النساء الفلسطينيات سواء من الناحية الطبقية، أم الجغرافية أم الطائفية فإنهن اشتركن جميعًا في لباس السروال الذي يُعد من أهم ملابس النساء؛ لأنه أكثر سترا، وكانت هذه السراويل تصنع من أنواع مختلفة من القماش فبعضها كان يصنع من القماش القطني الأبيض الذي يسمى بفت، بينما يصنع بعضها الآخر من قماش غير ناصع البياض ويسمى مالطي أو منصوري خام[188]، وفي هذا السياق يتطرق البحث إلى زي المرأة الفلاحة، وزي نساء المدن، وزي المرأة البدوية، على النحو الآتي:

زي المرأة الفلاحة:

امتاز زي المرأة الفلاحة في كثير من المناطق الفلسطينية بالبساطة إضافة إلى تعدد الألوان، فأثناء تجول روجرز في أسواق مدينة القدس، شاهدت مجموعات من الفلاحات من قريتي سلوان والعيزرية اللواتي جئن إلى المدينة لبيع الفواكه والخضراوات، ولاحظت أنهن كن يرتدين أثوابًا طويلة من الكتان المدبوغ باللون النيلي، ويربطن على خصورهن شالًا أو زنادًا أحمر اللون، بينما كن يغطين رؤوسهن بمناديل أو شالات ملونة أو بقطع من القماش كن يضعنها بطريقة معينة لإخفاء الوجه جزئيًا[189]، وتسمى هذه القطع في أوساط الفلاحين في الوقت الحاضر باسم "الخرقة" ويتضح من وصفها لذلك أن أولئك النساء لم يكن يرتدين على وجوههن البراقع أو الخُمر.

وينطبق هذا اللباس على فلاحات قرى بيت لحم، فقد وصفت نساء قرية إرطاس بأنهن كن يرتدين الأثواب ذات اللون الأرجواني والأكمام الواسعة وعلى خصورهن أحزمة من القماش. أما لباس الرأس فكان يتكون من طراحة قطنية بيضاء تغطي الكتف[190].

ولاحظت فارق الملابس بين الفلاحات في قرى القدس وبيت لحم والفلاحات في قرى قضاء حيفا اللواتي كن يرتدين الخمر، فنساء قرية الطنطورة كن يرتدين على وجوهن خمرًا من القطن[191]، وخلال مرور موكب من النساء والرجال الفلاحين بعد عودتهم من مدينة حيفا ومعهم كسوة العروس، شاهدت النساء يلبسن طرحات أو مناديل من الحرير والموسيلين والصوف بألوان مختلفة تلتف على جباههن بمحاذاة حواجب العيون وترتد نحو مؤخرة الرأس لتلتف من جديد بحيث تغطي كامل الوجه باستثناء العيون[192].

وبالإضافة إلى الثوب، ارتدت المرأة الفلاحة القمصان، فأثناء زيارتها لدار شيخ قرية كفر قرع قضاء حيفا وصفت ملابس نسائه الأربع بأنها من أثواب قطنية سميكة وخشنة مصبوغة بلون غامق، وكانت مفتوحة من المقدمة ومربوطة بحزام على الخصر، ويرتدين تحت الثوب قميصا أبيض وسراويل قطنية وصفتها بأنها كانت غامقة اللون[193].

ويتفق هذا اللباس مع لباس نساء قرية سلفيت شمال مدينة نابلس، فقد وصف كل من التميمي وبهجت أثناء مرورهما بتلك القرية أن نساءها كن يرتدين ثيابًا تشبه أقمصة النوم، وكانت مصنوعة من القماش الشامي المسمى ديما، أما ألوانها فكان منها الأحمر والأصفر[194].

أما زي النساء الفلاحات اللواتي ينتمين إلى مختلف الأسر الإقطاعية والأرستقراطية في الريف الفلسطيني، فقد كن لدى خروجهن من بيوتهن وإن كان ذلك في حالات نادرة يتشددن في لبس الحجاب ، ويروي إحسان النمر أن حجاب نساء عائلة الجيوسي في منطقة مغاربب نابلس ونساء الحاج محمد من منطقة المشاريق كان مضرب المثل في القرى[195]. وكن يتسترن من أعلاهن إلى أسفلهن بعباءات سوداء، أما في داخل بيوتهن فقد كان بعض منهن كالنساء البرغوثيات يرتدين الألبسة المصنوعة من الأقمشة القطنية أو الحريرية وارتدى بعضهن على رؤوسهن طرابيش زينت بنقود ذهبية، وكان أعلى غطاء شعرهن مرصعًا باللآلئ ، بينما كن يضعن في أرجلهن الخلاخيل الفضية[196].

وأثناء زيارة روجرز لقلعة آل جرار في قرية صانور وصفت ملابس زوجات إبراهيم جرار فقالت: إنهن كن يرتدين الأثواب الطويلة المفتوحة من الأمام، ويضعن على خصورهن شالات، وكانت أثوابهن من الحرير الناعم المخطط باللونين القرمزي والأبيض[197].

أما نساء آل عبد الهادي فقد أسهبت كثيرًا في وصف ملابسهن، إذ أقامت عندهن في قلعة العائلة في عرابة وفي حيفا عدة أيام. فعندما زارت العائلة خلال وجودها في عرابة وصفت لباسهن بأنهن كن يرتدين البناطيل الطويلة من الحرير الملون وسترات قصيرة ضيقة من القماش أو المخمل كانت مطرزة بخيوط من الذهب، وتدلت من أغطية رؤوسهن الأزهار والمجوهرات[198]. وكان بعضهن يرتدي أثوابًا طويلة من القطن أو الكتان مفتوحة من الأمام ولها أكمام واسعة وطويلة وارتدين تحتها سراويل مزمومة من عند الخصر وتحت الركبة، وارتدين أيضًا سترات قصيرة ومفتوحة مع شال ملفوف على الخصر كنطاق أو حزام[199].

ووصفت أصغر زوجات صالح عبد الهادي وأجملهن بأنها كانت ترتدي بنطالًا من الحرير الأصفر المزين جانبه بزركشة من الحرير الأسود، وارتدت سترة مخملية سوداء اللون مطرزة بخيوط ذهبية، بينما وضعت على خصرها شالًا أرجوانيا وأحمر وأخضر، أما رأسها فكان مغطى بطربوش قصير أحمر اللون وتدلت منه شرابة طويلة تحيطها كريات ذهبية مخرمة، ووضعت حول الطربوش سلاسل من اللؤلؤ والذهب والماس والزمرد[200].

وعندما انتقلت نساء العائلة إلى حيفا على إثر الحرب الأهلية التي وقعت عام 1859 في منطقة جبل نابلس، التقت روجرز بهن مرة ثانية ووصفت ملابس الزوجة الصغرى بأنها كانت ترتدي سروالًا حريريًا وردي اللون، وسترة ضيقة باللون البنفسجي الموشى بخطوط من الساتان الدمشقي الأبيض، بينما وضعت على خصرها شالًا من الكشمير. أما الزوجة الأقدم فكانت ترتدي ثوبًا حريريًا مغطى برسومات مختلفة، وكانت بناتها الصغيرات يرتدين سترات حريرية بنفسجية اللون من جهة الصدر

ومطرزة بخيوط فضية، بينما ارتدين سراويل محاكة من الموسلين الخفيف[201]، وذكرت أنهن باستثناء أيام الأعياد كن يرتدين سترات وسراويل من أقمشة مانشستر[202].

أما غطاء الرأس فارتدت جميع النساء طربوشًا اسطنبوليًا أحمر اللون وصفته بأنه "كان مائلًا بكلف ودلال بعض الشيء فوق الرأس"[203].

أما لباس القدم فكنَّ يلبسن الأحذية والقباقيب العالية[204]. ووصفت الحذاء الذي كانت تلبسه حلوة الزوجة الصغرى لصالح عبد الهادي بأنه ذو لون أصفر معقوف للأعلى من المقدمة، بينما ذكرت أنهن لم يكنَّ يرتدين الجوارب[205].

زي نساء المدن:

امتاز زي نساء المدن بالأناقة مقارنة بزي الفلاحات وإن اختلف حسب الحالة المادية للمرأة، فنساء القدس كن يرتدين الملاءات (العباءات) البيضاء ويغطين رؤوسهن بالمناديل ووجوههن بالبراقع[206]. أما نساء مدينة حيفا فقد لاحظت أنهن كن يرتدين السترة والسراويل الطويلة التي كان بعضها منسوجًا من قماش بال من مانشستر، أما لباس الرأس فكانت المرأة تغطي رأسها بمناديل ملونة من الموسلين[207].

وشاهدت نساء أخريات اتضح لها أنهن من أسر ثرية، إذ كن يرتدين سترًا ضيقة وسراويل طويلة كان بعضها مصنوعًا من الحرير الدمشقي. وذكرت أن النساء المسلمات كن يحرصن عند خروجهن من بيوتهن على ارتداء الخمار على الوجه[208].

وعلى الرغم من أن روجرز لم تشر إلى أحذية النساء في المدينة، فإنها شاهدت خلال مرورها في بعض الأسواق دكانين يعرضان الأحذية والنعال الحمراء والصفراء والشباشب المطرزة[209].

أما ملابس النساء في مدينة يافا فقد شاهدت خلال تجوالها في أسواق المدينة دكاكين خياطة كان الخياطون فيها يقومون بتطريز الثياب، كما لاحظت وجود دكاكين أخرى تخصصت في بيع الحرير المستورد من حلب ودمشق ومانشستر، والبراقع والمناديل المستوردة من اسطنبول وسويسرا،

كما شاهدت أيضًا مصانع أحذية تقوم بصناعة الشباشب المغربية الصفراء والأحذية الجلدية الحمراء[210].

ووصفت زي المرأة اليافاوية لدى خروجها من منزلها أنه امتاز بالبساطة، إذ ترتدي على وجهها برقعًا من قماش الموسيلين الملون يغطي الوجه والرأس وتربط على خصرها وشاحا أو شالا، كما ترتدي عباءة تغطي الرأس والكتفين، مضيفة أن المرأة اليافاوية كانت تلبس عباءتها بطريقة مميزة بحيث يكون من الصعب "تمييز امرأة ترتدي هذا اللباس إلا إذا امتازت بمشية معينة أو بسمات جسدية معروفة"، أو تكون العباءة مطوية عند جبهة الرأس وتأخذ استدارة الوجه في نزولها إلى أسفل الذقن بحيث تغطي الصدر والجزء الأمامي من لباس المرأة بالكامل، وكانت تزم عند مقدمة حزام الوسط ما يؤدي إلى ارتفاعها عن الأرض، بينما ترتخي بشكل مستقيم من الخلف حتى كعب القدمين[211].

وفي مدينة الناصرة ارتدت النساء المسيحيات السراويل الفضفاضة والقمصان البيضاء، بينما كانت أثوابهن طويلة ومفتوحة من الأمام، وذكرت روجرز أن هذه الأثواب كانت من القماش القطني المقلم أو من الحرير الدمشقي، وتحاط بزنار مشدود على الخصر، أما غطاء الرأس فكان عبارة عن طاقية من القماش أو الكتان تحيط به عصبة أسطوانية سميكة تغطي الجزء العلوي من جبهة الرأس، وتثبت بربطها بشريطين تحت الذقن، وكانت بعض النساء تعلق في هذه الأسطوانة عملات فضية. وكانت ترتدي أيضًا على وجهها منديلا أو برقعا من قماش الموسيلين الذي كان بعضه أسود اللون وبعضه الآخر بألوان أخرى[212].

وذكرت روجرز أنه طرأ على زي المرأة النصراوية بعض التغيرات نتيجة لتأثير زائري المدينة من المدن والقرى الأخرى وخاصة مدينة حيفا، فأخذت أسواق الناصرة تعج بالمجوهرات والطواقي والطرابيش النسائية المهدبة بالحرير المستورد من اسطنبول وقد ترتب على هذه التغيرات استغناء الشابات عن غطاء الرأس التقليدي والاستعاضة عنه بمناديل وطرابيش حمراء[213].

أما أزياء نساء طائفة اليهود السمرة في نابلس[214]، فقد وصفتها بالبساطة، والكثير منهن كن يرتدين ملابس بالية ومملوءة بالرقع، ويتكون هذا اللباس من السراويل والستر القماشية، وكن يضعن على وجهوهن البرقع، وذكرت أنهن عندما يخرجن من بيوتهن يرتدين ملاءات كبيرة بيضاء اللون[215].

وروت نقلًا عن كاهن الطائفة أن نساء الطائفة لم يكن يسترن وجوههن عن الرجال من أبناء الطائفة، غير أنهن كن يلتزمن بارتداء البرقع خلال سيرهن في الشوارع أو عند حضور الغرباء[216]. وأضافت روجرز أن بعض فتيات الطائفة كن يضعن في أرجلهن خلاخيل تتدلى منها أجراس صغيرة بينما يرتدين طرابيشهن بعملات معدنية صغيرة[217].

زي المرأة البدوية:

تضمنت رحلة روجرز إشارات قليلة عن زي المرأة البدوية واقتصرت هذه الإشارات على الأسر البدوية التي كانت تستريح عندها خلال تنقلها بين المدن الفلسطينية، فذكرت أن اللباس الرئيس للمرأة البدوية كان عبارة عن ثوب واسع من القماش القطني الخام يكون مفتوحًا من أعلى الصدر، وكانت ثيابهن مطرزة عند الأكمام والصدر والعنق بأشكال متنوعة من خيوط رفيعة، وأشارت إلى ألوان تلك الثياب فكان بعضها أسود بينما كان بعضها الآخر باللونين الأزرق والبني. أما لباس الرأس فكان عبارة عن شالة صوفية سوداء اللون مهدبة وذكرت أنهن كن يضعنها ببساطة وأناقة[218].

وهكذا يتضح مدى التباين في لباس النساء اعتمادًا على الوسط الاجتماعي والقدرة الاقتصادية، ومع ذلك فقد حرصت المرأة الفلسطينية على أن يكون لباسها محتشمًا وفقًا للعادات والتقاليد السائدة في المجتمع الفلسطيني. وكما تباين اللباس بين النساء فقد تباين الذوق الجمالي لديهن أيضًا وهو ما سيتم توضيحه في الآتي:

سادسًا: الذوق الجمالي للمرأة (الجمال الحسي)

تكشف نصوص الرحلة عن الذوق الجمالي للمرأة الفلسطينية في مختلف المناطق التي زارتها الرحالة، وعلى الرغم من أن معايير الجمال وحُسن المنظر ليست مطلقة، فإن روجرز شاهدت الجمال الأنثوي وهي تنتقل من مكان إلى آخر، فوصفت نماذج نسوية تنتمي إلى فئات اجتماعية متباينة.

لقد أظهرت روجرز في رحلتها أن المرأة الفلسطينية بشكل عام امتازت بالجمال الطبيعي واللياقة الصحية سواء في مناطق المدن أو الريف. فقد وصفت نساء مدينة الناصرة بأنهن جميلات في العادة بالرغم من شحوبهن[219]. وقد أبدى القنصل البريطاني فن إعجابه بجمال أجسادهن وما كن يتمتعن به من لياقة بدنية وصحية، إذ كن يعتنين كثيرًا بأجسادهن مقارنة بنساء المدن الأخرى، وكن يحرصن على عدم استنفاد طاقاتهن بالعمل الشاق، وعلى الرغم مما كن يقمن به من أعمال منزلية ومساعدة أزواجهن في زراعة وحراثة الأراضي، فإنهن امتزن بصحة ممتازة[220].

وأثناء وجود روجرز في مدينة حيفا، حضرت حفل زفاف لأسرة مسيحية، حيث وصفت جمال بعض النساء بعد أن نزعن الملاءات والبراقع قائلة: "كانت بشرات وجوه العديد منهن بنفس نضارة بشرة العروس وكن جميعًا يمتلكن عيونًا واسعة وجفونًا ورموشًا كحيلة. وكانت أفواههن كبيرة بعض الشيء وتظهر أسنانًا منتظمة وكبيرة وناصعة البياض. وكانت بشراتهن غامقة بشكل عام لكنها كانت صافية ونضرة"[221].

أما النساء الفلاحات، فقد التقت بفلاحات من قرية سلوان[222] قضاء القدس في أسواق المدينة ووصفت إحداهن بأنها كانت "صارخة الجمال"[223]. وخلال مرورها بقرية إرطاس قضاء بيت لحم، التقت بخمس فتيات كن يعملن في زراعة الأرض ووصفت ثلاثة منهن بأنهن "كن سمراوات وجميلات جدًا". بينما كانت الفتاتان الأخريان متوسطتي الجمال، ولاحظت عليهن جميعًا علامات القوة والرقة، وكانت "عيونهن ملونة وواسعة وصافية"[224].

أما نساء قرية شفا عمرو قضاء حيفا فتذكر أنهن يمتزن بإشراقتهن وعافيتهن، وقلَّما كن يستخدمن من أدوات الزينة، نظرا لشدة جمالهن[225]. وخلال وجودها في القرية، استضافتها أسرة الخواجة أسطفان ابن كاهن طائفة الروم الأرثوذكس في القرية، وقد وصفت زوجته بأنها كانت "فارعة الطول ذات عينين غامقتين"، بينما كانت ابنتها البالغة من العمر عشر سنوات "في آية من الجمال، وجه متناسق القسمات مع بشرة صافية سمراء وعيون بنية لامعة، وجفون كحيلة بغزارة، سرحت شعرها الأسود الكثيف فوق جبهتها وصولًا إلى حاجبيها المقوسين، بينما ترك من الخلف لينمو طويلًا ويجدل في ضفائر"[226].

وعندما زارت إحدى الأسر في قرية كفر قرع أبدت إعجابها بجمال أسنان نساء تلك الأسرة إذ كن ذوات أسنان منتظمة وناصعة البياض على الرغم من عدم استخدامهن فرشاة الأسنان، وتفسر ذلك بحرصهن بشكل دائم على غسيل أفواههن ومضمضتها بعد كل وجبة أكل[227].

وخلال وجودها في مدينة حيفا حضرت حفل زفاف لأحد الأشخاص، وكانت العروس فلاحة من إحدى قرى قضاء حيفا، وقد وصفتها قائلة: إنها "آية في الجمال، ووجها كان مشرقًا نضرًا، حاجبان أسودان ومحددان بشكل طبيعي، ورموش طويلة لدرجة أنها لا تحتاج لوضع الكحل، وكانت وضاحة المحيا" لدرجة أن بعض النساء اللواتي كن في الحفل وصفنها بالقول: "الورد مفتح على خدودها، بيلزمهاش تشتري ورد من السوق"[228].

أما عن نساء الطبقة الأرستقراطية من الأسر الريفية الحاكمة، فقد وصفت نساء إبراهيم جرار في صانور بأنهن جميلات وجريئات وكانت عيونهن واسعة وصافية، وذكرت أن أبناء عائلة جرار لا يتزوجون إلا من الصبايا الفاتنات اللاتي يتمتعن بصحة جيدة وأجسام قوية وذلك حتى تستمر عليهن مظاهر الصحة والجمال التي يباهون ويتفاخرون بها في الأسرة[229].

أما نساء عائلة عبد الهادي في قرية عرابة، فقد وصفت إحدى بنات صالح عبد الهادي قائمقام حيفا بأنها كانت "آية في الجمال"[230].

غير أن روجرز أبدت شدة إعجابها بشقيقته جليلة البالغة من العمر 11 سنة التي كانت تتمتع بجمال صارخ ما دفع روجرز للقول بأنها لم تر فتاة في فلسطين أجمل منها أو تضاهيها في الجمال، فكان وجهها مستديرًا تمامًا وأنفها مستقيما وشفاهها صغيرة ولها رموش طويلة سوداء بينما كانت حواجبها دقيقة وكأنها مرسومة، وكانت عيونها واسعة بلونهما الرمادي[231].

الحلي والزينة:

تكشف نصوص رحلة روجرز عن مدى اهتمام المرأة الفلسطينية وعنايتها بمكملات جمالها من خلال اقتنائها للحلي والتفنن في وسائل الزينة بأصنافها وأشكالها المتنوعة.

فقد أولت النساء الفلسطينيات على اختلاف طبقاتهن الاجتماعية الزينة والأناقة اهتمامًا فائقًا ليكشفن بذلك عن رقي مجتمعهن ورهافة حس المرأة فيه، فقد أظهرت دراسة تناولت تركات لمائة وثلاث نساء مقدسيات توفين خلال المدة 1859-1869م، أنه كان من بينهن ثلاث وخمسون متوفاة ونسبة ذلك 51.45% تضمنت تركاتهن حليّا ومجوهرات بنسب متفاوتة، وكان من بين هذا العدد خمس متوفيات شكلت نسبة الحلي في تركاتهن ما بين 50-90% من إجمالي التركة[232].

وكشفت تلك التركات عن مختلف أنواع الحلي التي كانت تستخدمها المرأة الفلسطينية وبخاصة في المدن، فمنها الشعائر الذهبية والحلق والخواتم والضفائر والأساور والعقود والمواسير والسلاسل والماسكات والحياصات والكرادين والشكلات والحجب والشبابات وغيرها، وكانت بعض هذه الأنواع تطعم بالأحجار الكريمة كاللؤلؤ والعقيق والمرجان[233].

وتصف الرحالة روجرز حلي النساء من مختلف الطبقات الاجتماعية، فقد لاحظت أن نساء الطبقة الأرستقراطية استخدمن الذهب والماس، وهو ما شاهدته لدى زيارتها لدار أحد التجار العرب المسيحيين في مدينة حيفا لويس كتفاغو، فذكرت أن زوجته لبيبة كانت تلبس في عنقها قلادة ذهبية كتب عليها كلمات عربية تتكون من أدعية دينية لمباركة لابستها، وكانت وضعت عقدًا من

اللؤلؤ يتوسطه صليب من الماس[234]، ووصفت شعرها بأنه "كان مجدلًا في ضفيرة قسمت إلى أربع عشرة جديلة طويلة، وعقد في نهاية كل ضفيرة حلية صغيرة من الذهب واللؤلؤ[235].

وعندما زارت قلعة صانور والتقت بنساء إبراهيم جرار وصفت حليّهن بقولها: "أحاطت بوجوههن سلاسل من العملات الفضية وعلى جباههن صف من العملات الذهبية الصغيرة المزمومة كالعصابة لربط شعرهن الأسود الكثيف"[236].

أما نساء آل عبد الهادي فوصفت حلي جليلة عبد الهادي الشقيقة الصغرى لصالح عبد الهادي البالغة من العمر 11 سنة أنها كانت تلبس في رقبتها قلادة تدلت منها حلي من الفضة وحجر المرجان[237].

ووصفت حلي حلوة إحدى زوجات صالح بأنها كانت ترتدي ملابس مطرزة بخيوط ذهبية وطربوشًا تدلت منه شرابة تحيط بها كريات ذهبية مخرمة ووضعت حولها سلاسل من اللؤلؤ والأرباع الذهبية والماس والزمرد، علاوة على الأشرطة الحريرية التي تخللت جدائل شعرها والتي عقدت بها حليا من المجوهرات وحبات اللؤلؤ الصغيرة[238].

أما نساء العامة في المجتمع المدني، فقد كان بعضهن يستخدمن حليا من الذهب والفضة، ويعتمد ذلك على الوضع المادي للأسرة، ففي مدينة حيفا شاهدت بعض النساء يُزيّن أعناقهن بقطع من العملات المعدنية، بينما زيّنت معاصمهن بأساور مجدولة من الفضة[239]. كما شاهدت بعض النساء المسيحيات في بيت لحم يلبسن الطربوش على رؤوسهن مزينًا بصف من العملات الذهبية الصغيرة[240]. وربما تقصد بذلك ما يُعرف حاليًا باسم الوقاة التي ما تزال ترتديها بعض النساء الفلاحات.

وفي مدينة الناصرة كانت النساء يزين ملابس رؤوسهن بعملات فضية تكون مرصوصة بعضها بجانب بعض، وتتدلى تلك العملات على جانبي الوجه، كما كن يضعن على جباههن عملات معدنية

صغيرة[241]، وتذكر أن الشابات اللواتي كن في مقتبل العمر أخذن بالاستغناء عن لباس الرأس المثقل بالعملات واستبدلنه بمناديل وطرابيش[242].

أما النساء الفلاحات فغالبًا ما كن يستخدمن الحلي الفضية، فوِفقًا لما ذكره القس الإنجليزي ولسون الذي زار فلسطين أواخر العهد العثماني، فإن الفلاحات الفلسطينيات كن مولعات جدًا بالزينة "وحين يكن قادرات على شراء المجوهرات، فإنهن يلبسن كمية كبيرة منها، ويزين معاصمهن وأذرعهن بأساور ثقيلة، وأصابعهن بخواتم سميكة غير مصقولة". وذكر أن هذه الحلي غالبًا ما كانت من الفضة[243]. ويبدو واضحًا أن ذلك يعتمد على الإمكانات الاقتصادية للأسرة التي ليس بمقدورها شراء حلي من المعادن الثمينة.

ويتطابق وصف ولسون مع وصف الرحالتين العربيين التميمي وبهجت اللذين زارا المنطقة أيضًا أواخر العهد العثماني، فخلال مرورهما بقرية سلفيت شاهدا بعض نسائها يزين معاصمهن بحلي من الفضة الثقيلة المنقوشة وتسمى بالسنّارات، كما كن يعلقن في رقابهن قلائد فضة يبلغ طول القلادة الواحدة نحو المتر، أما ضفائر شعرهن فكن يزينها بحلي من الفضة تدعى برانخ وهي عبارة عن قوس من الفضة يعلق فيه بخيوط طويلة حلقات فضة ودراهم، ويُسمع لهذه الحلي أصوات من أطراف الشعر، وكانت بعض النساء في القرية تضيف إلى البرانخ تفاحات فضية على شكل فوانيس صغيرة تربط بالشعر[244].

ومن القرى التي زارتها روجرز قرية كفر قرع قضاء حيفا، ووصفت حلي النساء فيها بأنهن كن يضعن على رؤوسهن سلاسل من أرباع النقود الفضية[245]. بينما كن يضعن في معاصمهن أساور فضية أيضًا[246].

أما الفلاحات في قرى القدس فتذكر أنهن كن يضعن في أيديهن أساور ملونة من الزجاج المصنوع في مدينة الخليل بالإضافة إلى الخلاخيل الفضية، ووضعت بعضهن قلادات في رقابهن معلق عليها قطع نقود معدنية وخواتم من الفضة[247].

وخلال وجودها في مدينة الناصرة شاهدت في أسواقها أساور فضية وذهبية وأخرى زجاجية، وقد اشترت واحدة منها مصاغة من الفضة المجدولة والثقيلة ربطت بسلسة من الفضة المشغولة، وتنتهي بخاتم عريض وصفته بأنه رديء الصنع ويعلوه فص من المجوهرات، صمم ليوضع في سبابة اليد، وتذكر كما أبلغتها إحدى صديقاتها الناصريات أن نساء الفلاحين هن فقط من يقمن بشراء هذه الأنواع من الحلي[248].

أما المرأة البدوية، فعلى الرغم من بساطة حياتها وإقامتها في بيوت من الشعر، فإنها أبدت بدورها اهتمامًا بالحلي، فقد شاهدت نساء بدويات يضعن في أيديهن أساور من الفضة[249]. كما كن يضعن في أصابعهن الخواتم ويلبسن القلائد في رقابهن وإن كانت على حد قولها رديئة الصنع[250].

وخلال زيارتها لمدينة نابلس التقت بالنساء اليهوديات من طائفة السمرة، وذكرت أنها لم تر الكثير من المجوهرات على نساء الطائفة سوى المتزوجات حديثًا كن يضعن بعض الحلي على رؤوسهن، غير أن معظمهن كن يرتدين أساور زجاجية، كما أن بعض الفتيات الصغيرات كن يضعن خلاخيل تتدلى منها أجراس صغيرة، كما كن أيضًا يضعن بعض العملات المعدنية الصغيرة في مقدمة الطرابيش التي يلبسنها على رؤوسهن[251]. ومن الفئات الاجتماعية الأخرى التي تحدثت عنها روجرز نساء النور، فقد شاهدت بعضهن يلبسن الأساور الفضية وخواتم وصفتها بأنها كانت ضخمة، "صوفية الطراز لحماية لابساتها من الشر"[252].

كما تزينت الخادمات ببعض أنواع الحلي، فقد شاهدت في إحدى الدور التي زارتها في مدينة حيفا خادمة إفريقية تضع عقدًا من العملات الذهبية حول عنقها وخواتم ضخمة في أصابعها، ووضعت على معصمها أساور زجاجية إضافة إلى خلاخيل مزركشة على كاحلها، ووضعت أيضًا على جانب أنفها حجرًا من الفيروز كان مثبتًا على دبوس فضي وضع داخل فتحة الأنف[253]. كما شاهدت بعض الخادمات الحبشيات في دار أخرى في المدينة يلبسن قلائد وخلاخيل فضية وأساور بلورية[254].

ومن مظاهر الزينة التي استخدمتها النساء تكحيل الجفون والرموش، وذكرت أن مادة الكحل كانت تستخرج من حجر الإثمد وهو عبارة عن حجر طبيعي صخري هش يتم طحنه حتى يتحول إلى مسحوق ناعم[255]. ولاحظت روجرز أن النساء الفلسطينيات من مختلف الفئات الاجتماعية كن يستخدمن الكحل حتى يظهرن بمظهر أكثر جمالًا، وذكرت أن النساء في الناصرة كن يضعن كميات كبيرة من الكحل على جفونهن[256]، كما شاهدت الفلاحات المقدسيات اللواتي كن يأتين إلى أسواق القدس لبيع الفواكه والخضراوات وهن يضعن الكحل على جفونهن والصبغة على رموشهن[257]. ووصفت بعض النساء بأنهن كن قد "صبغن جفونهن بصبغة غامقة اللون، وكحلن أهدابهن بكحل أسود[258].

وبالإضافة إلى الكحل، استخدمت النساء الحناء على الأيدي والأرجل، ولم يقتصر استخدام الكحل والحناء على النساء المسنات، بل حتى الفتيات الصغار أبدين الاهتمام بذلك، فقد وصفت جليلة شقيقة صالح عبد الهادي بأن "جفونها كانت مصبغة بالكحل، وهو ما أضفى قوة غامضة على عينيها الواسعتين بلونهما الرمادي. وصبغت أظافر أصابعها بقليل من الحناء، بينما صبغت أصابع قدميها بصبغة عميقة"[259].

ووصفت إحدى الفتيات المسيحيات في قرية شفا عمرو البالغة من العمر عشر سنوات بأن جفونها كانت "كحيلة بغزارة، وقد خضبت يديها وقدميها بالحنة"[260]، وخلال وجودها في نابلس شاهدت إحدى الفتيات من يهود السمرة وكانت عروسًا جديدة قد خضبت يديها وقدميها العاريتين بنقوش أنيقة وبالغة الدقة من الحناء[261].

الوشم:

كان من بين علامات الزينة والجمال التي دأبت بعض النساء عليها الوشم، فقد تزينت بعض النساء باستخدام الوشم على بعض أنحاء الجسم كالوجه والذراعين والشفاه، وهي عادة اجتماعية متوارثة إذ اعتادت النساء وشم أجسادهن برسومات مختلفة. وتتم عملية الوشم باستخدام الإبرة

والرماد وذلك من خلال وخز الجلد بالإبرة ثم يوضع الرماد أو الصبغة وبخاصة صبغة النيلة عن طريق الفتحات ليتحول فيما بعد إلى اللون الأخضر[262].

ورصدت روجرز استخدام النساء الفلسطينيات بمختلف انتماءاتهن الدينية والاجتماعية في مختلف المناطق التي زارتها للوشم وبخاصة على وجوههن، فعندما زارت نساء آل جرار في صانور لاحظت كيف كانت نساء إبراهيم جرار مزينات بالوشم، ووصفت ذلك بقولها: "وعجت ذقونهن وصدورهن بأوشام على شكل نجوم نقطية"[263]، بينما وصفت زوجة محمد عبد الهادي في حيفا بأنها كانت موشومة على شفتيها بالإضافة إلى نقش نجمة على جبهتها وهلال صغير على ذقنها[264]. أما حلوة أصغر زوجات صالح عبد الهادي فقد وشمت ذقنها وصدرها بنقط زرقاء بينما وضعت على جبينها وشما بلون أزرق أيضًا على شكل نجمة[265].

كما اهتمت النساء الفلاحات والبدويات أيضًا بوشم أنحاء مختلفة من أجسادهن، فخلال استضافتها من قِبل بعض الأسر البدوية القاطنة في مناطق جنوب شرق الناصرة وصفت النساء بقولها: "كانت وجوههن وأذرعهن وأعناقهن موشومة ومخضبة بالحناء البرتقالية، شفاههن المكتنزة كانت زرقاء تمامًا نظرًا لثقبها بمهارة بصبغة النيلة في نقاط متقاربة من بعضها بعضا"[266].

وأثناء وجودها في بيت لحم التقت بالنساء المسيحيات اللواتي كن قد وضعن أوشاما مختلفة على أذرعهن[267]. وبينت موقف الكنيسة الأرثوذكسية الرافض لهذه الظاهرة التي اعتبرتها من البدع المستحدثة، وذكرت أنها هددت بفرض عقوبة الحرمان الكنسي على النساء اللواتي يقمن بوشم أجسامهن، بل وصل الأمر إلى حد فرض الحرمان على النساء اللواتي يستخدمن الكحل أو الحناء، إلا أن النساء المسيحيات لم يكترثن بهذا التهديد واستمررن باستخدام مستحضرات الزينة والتجميل لقناعتهن بأن ذلك من شأنه أن يزيد من جمالهن ويلفت الانتباه ويجلب الأنظار[268].

أما النساء المسيحيات في الناصرة فقد ذكرت أنهن كن يبالغن في الأوشام على بعض أنحاء الجسم، إذ يضعن كثيرًا من الأوشام على أذرعهن، بينما يضعن القليل منها على وجوههن[269].

لقد اتضح من خلال نص رحلة روجرز مدى اهتمام النساء الفلسطينيات وعنايتهن بمكملات جمالهن، فاقتنين أنواع الحلي، وتفنّ في استخدام أنواع الزينة على اختلاف انتماءاتهن الاجتماعية. وأخيرًا لا بد من توضيح الصور الغريبة وغير المألوفة المتعلقة بالمرأة الواردة ضمن نص الرحلة لدى كل من المرأة الفلسطينية من جهة والرحالة روجرز من جهة ثانية، وسيكون ذلك على النحو الآتي:

سابعًا: الغرائبية والصور غير المألوفة المتعلقة بالمرأة

تعد الغرائبية جزءًا من طبيعة الأدب، وقد عرف القزويني مصطلح الغريب بأنه "كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة"[270]، فالغريب يكشف عن سيرورات مخالفة لمجرى الحياة المألوفة وهو يفترض مقابلة بين ما هو غريب وما هو أليف[271]، والعادات الغريبة والتعابير التي تستورد في مكان ليس من عادتها أن تكون فيه وغير معتادة عليه فهي تكون بهذه الصورة كالغرباء، ومن ثم يحصل الشعور بالدهشة والتعجب من تلك العادات[272].

لقد وقفت الرحالة روجرز على العديد من المشاهد غير المألوفة المتعلقة بالمرأة خلال لقاءاتها ببعض النسوة وخاصة الفلاحات اللواتي أبدين استغرابهن تجاه بعض السلوكيات التي كانت تمارسها روجرز وهي سلوكيات غريبة على مجتمع شرقي تقليدي محافظ، ومن ثم فإذا كانت هذه السلوكيات قد بدت غريبة على تلك النسوة، فإن ردة فعل روجرز تجاهها كانت أيضًا غريبة.

كما أبدت الرحالة أيضًا استغرابها من كثير من العادات وبعض السلوكيات التي شاهدتها لدى تلك النسوة ما يعكس وجود تباين كبير في نمط التفكير والثقافة لدى الطرفين. فالسلوكيات التي شاهدتها تلك النسوة لدى روجرز أو ما شاهدته الرحالة نفسها لدى تلك النسوة اعتبرت لدى الطرفين سلوكيات غير عادية وبعيدة عن المألوف وأوجدت حالة من الحيرة والدهشة.

تروي الرحالة كثيرًا من المشاهد التي بدت لديها أمورًا غريبة وغير مألوفة، فلدى زيارتها لدار شيخ قرية كفر قرع ولقائها بنسائه وبناته اللواتي تفاجأن من شكلها كونها فتاة أوروبية بيضاء البشرة إلى حد أن بعض الفتيات لدى مشاهدتهن لها للوهلة الأولى أخذن بالصراخ من شدة الخوف

متخيلات -حسب زعمها- أنها شبح أو روح شريرة، غير أنها أخذت تبرر ردة الفعل هذه بقولها: "عرفت لاحقًا بأنني أول سيدة إفرنجية تزور كفر قرع"[273].

وتضيف قائلة: إنه بدا عليهن علامات الاستغراب والصدمة عندما علمن أنها تلبس قبعتها عند خروجها من المنزل فقط في الوقت الذي لا يمكن للمرأة في الشرق أن تخرج مكشوفة الرأس[274]. وأبدت روجرز أيضًا استغرابها من بعض سلوكيات تلك النسوة عندما أبدين اهتمامًا غير اعتيادي بمعرفة محتويات حقيبة الزينة التي كانت تحملها. كما أنها لاحظت أن أسنانهن كانت منتظمة وناصعة البياض مع أنهن لم يكن يستخدمن فرشاة الأسنان ولا يعلمن أن الأسنان تنظف بفرشاة ومعجون، وتفسر حفاظهن على أسنانهن بأنهن مواظبات على غسل أفواههن والمضمضة فور الانتهاء من الأكل[275].

لم تكن الغرابة من رؤية امرأة أوروبية للمرة الأولى مقتصرة على نساء كفر قرع، بل إنها أيضًا لاحظت ذلك لدى زيارتها لجناح الحريم في قصر آل عبد الهادي في قرية عرابة، فعندما دخلت عليهن انقضضن عليها، ووصفت المشهد بقولها: "وكأنهن عثرن على دمية جديدة يلهين بها، لم يسبق لهن أن رأين إنسانًا أوروبيًا أبدًا"[276].

وعلى الرغم من عدم سماحها لنساء كفر قرع بفتح علبة زينتها، فإن نساء عبد الهادي أبدين دهشتهن من محتويات حقيبة ملابسها، فلدى إحضار تلك الحقيبة من الديوان إلى جناح الحريم وقيامها بفتحها ربما لارتداء بعض الملابس، هرعت النساء والخدم والأطفال جميعًا لمشاهدة محتوياتها وتصف هذا المشهد بقولها: "حيث فرغت من محتوياتها خلال دقيقة أو دقيقتين. كانت عباءاتي وملابس الصباح والمساء وقمصان النوم والياقات تمر من يد إلى يد، ولما لم يكن أي منهن تعرف طريقة ارتدائها فقد كن يلبسنها بوضعيات غريبة جدًا، إحدى البنات أخذت ياقة صغيرة وقامت بتثبيتها على جبهتها اعتقادًا منها بأنها غطاء للرأس"[277].

ويبدو أن الرحالة كانت هاوية للرسم، فقد قامت برسم صورة لحلوة آخر زوجات صالح عبد الهادي، وبعد أن انتهت من ذلك وشاهدت النساء الصورة أصبن بدهشة بالغة إذ لم يسبق أن شاهدن أحدًا يرسم وجه آخر أو أي شيء آخر من قبل، وتصف ردة فعلن ودهشتهن بأنهن أخذن بالصراخ وقلن: "سبحانك يا ربي، هذا وجه حلوة! هاي عيونها بتبحلق فينا، وهاي عقدها الذهب على ركبتها! والأرجيلة بيدها"[278].

وكان بحوزة روجرز خريطة تستخدمها للوصول إلى المواقع، وعندما شاهدنها تعالت صرخاتهن يرددن عبارة "سبحان الله" إذ لم يتوقعن على حد قولها أن هناك امرأة تعرف القراءة والكتابة، وأن الكتابة مقتصرة فقط على الذكور دون الإناث حيث إن أبناءهن كانوا يذهبون للكتّاب التابع للمسجد[279].

وتصور روجرز نمط التفكير لأولئك النسوة تجاه المرأة، فالمرأة لديهن ينبغي أن تتزوج وتبقى ملتزمة في بيتها، فالنساء كما قالت لها إحداهن بعد أن استفسرت منها عن السبب الذي دعاها لأن تترك والديها، وأنه من الأفضل لها لو تزوجت وبقيت في بيتها بدل السفر "يجب أن يظلوا في بيوتهم"[280].

غير أن المفاجأة الأكبر لهن عندما ذكرت لهن أن من يحكم بلادها امرأة وأن زوجها لا يتدخل في الحكم فبدا ذلك أمرا غريبا جدًا ولم يتخيلن حصول ذلك فتصف شعورهن بالقول: "وكأن نورًا غريبًا شع فوق رؤوسهن، وبدا لهن انطباع أن النساء في بريطانيا يقدن الرجال ويسيطرن عليهم في مختلف مناحي الحياة، وهو ما دفع روجرز لإجابة إحداهن قائلة: "سلطانتكو بتقدرش تخلي الصولجان بيدها غير لولاها أقوى وأفصح من الزلام"[281].

ومن الأمور الغريبة التي أبدتها نساء عبد الهادي وهو أمر ينطبق على النساء الفلسطينيات بشكل عام، اختلاط الرجال والنساء وقيامهم بالرقص معًا، فتصف خلال وجودها بضيافة نساء

عبد الهادي أنهن أخذن يرقصن ويغنين أمامها، وأخذت إحداهن تستفسر منها عما إذا كان الإنجليز يعرفون الرقص أو لا، فتفاجأن من جوابها عندما ذكرت أن النساء والرجال يرقصون معًا[282].

ويتضح من طبيعة السؤال نفسه أنه كان بحد ذاته سؤالًا غريبًا إذ يستنتج منه أنهن يعتقدن أن الرقص مقتصر فقط على النساء العربيات دون غيرهن، ويعكس ذلك مدى سذاجتهن وبساطة تفكيرهن.

كما وصفت استغرابهن وما أصابهن من ذهول عندما شرعت بتبديل ملابسها وارتداء ملابس النوم، حيث اعتقدن أن تغييرها لملابسها كان استعدادًا لمغادرة القصر، فأخذن يصرخن بأصوات عالية يسألنها: "لوين رايحة؟ شو بدك تساوي؟ وليش ثوبك لونه أبيض؟" وتذكر أن هذا الشعور الذي انتابهن من ارتدائها لملابس النوم جاء بالنظر لعدم تعودهن على تغيير ملابسهن عند النوم إذ كن ينمن في ملابسهن التي كن يرتدينها[283].

وتذكر أيضًا أنها بعد أن أخلدت إلى النوم أدارت وجهها لحائط الغرفة بشكل منحنٍ وقرفصت على ركبتيها وغطت وجهها وأخذت تناجي الله، ولما شاهدنها تفعل ذلك أبدين استغرابهن وطلبن منها أن تنهض من الفراش وأخذن بالاستفسار منها عما كانت تفعله فأجابتهن بأنها كانت تدعو الله بأن يحميها، وطلبن منها أن تشرح لهن ماذا كانت تتمتم، فلما أجابتهن بأنها كانت تقول: "أبانا الذي في السماوات أعطنا خبزنا كفاف يومنا"[284]، أبدين استغرابهن إذ كيف تقول أبانا الذي في السماوات في الوقت الذي ذكرت لهن بأن أباها في بريطانيا، أما بشأن الخبز فسألنها قائلات: "بتقدريش تخبزي خبزك لحالك؟"

وفي صباح اليوم الثاني حضرت نساء أخريات من الجيران إلى القصر وطلبن منها إعادة ما قالته في الليل أمامهن مرة ثانية حيث خاطبتها إحداهن قائلة: "معلش تحكي مع ربنا مشان يسمعوكي الجارات"[285].

ومن اللافت للنظر في هذه الرواية أن الرحالة كانت تقوم بأداء الصلاة الربانية كما وردت في الإنجيل، ومن الواضح أن أولئك النسوة كن يعتقدن أن الصلاة والدعاء أمر مقتصر فقط على المسلمين دون غيرهم، ويتضح من النص الذي قالته أثناء الصلاة وإجابتهن لها بأنه لم يكن لديهن ثقافة أو وعي بالأمور الدينية، بل ربما أنهن لم يكن يعرفن الصلاة، وإلا كيف من الممكن تفسير دعوة إحداهن لها بأن "تحكي مع ربنا" حتى تسمعها الأخريات.

ومن الغرائب الأخرى التي أوردتها الرحالة خلال زيارتها لأسرة بدوية في شرق مدينة الناصرة طريقتها في الأكل عندما قُدمت لها وجبة غداء من الدجاج حيث أخذت تستخدم الشوكة والسكين اللتين كانت تحتفظ بهما في حقيبتها، وهو أمر قد لفت انتباه النساء البدويات واستغرابهن إذ "لم يرين في حياتهن أناسًا يأكلون باستخدام السكاكين والشوك من قبل"، وأضافت معتقدة أنهن "رأين في ذلك تصرفًا في غاية الهمجية"[286].

وعندما ذكرت لنساء آل عبد الهادي أن الرجال والنساء يأكلون معًا من نفس المائدة ويستخدمون الشوك والسكاكين والملاعق، أبدين دهشتهن لذلك، إذ إنهن كما تقول: "لم يسمعن مطلقًا عن امرأة تأكل في حضرة رجل حتى لو كان أباها أو زوجها"[287].

وربما يكون هناك بعض المبالغة في هذا الوصف من قِبل الرحالة، فإذا كان الفلاحون يخرجون مع نسائهم للعمل معًا في حقولهم وأراضيهم، فلا يساورنا أدنى شك في أنهم كانوا يأكلون من نفس المائدة بشكل مشترك، فما دامت طريقة العمل تتم بشكل مشترك، فالأكل أيضًا كان مشتركًا.

الخاتمة:

لقد شكلت المرأة الفلسطينية عنصرًا مهما من عناصر بناء نص هذه الرحلة؛ إذ كان حضورها في هذا النص فاعلًا ومؤثرًا، وشكلت مكونًا مهمًا وأساسيًّا للسرد الذي قامت عليه الرحلة كلها.

استطاعت الرحلة أن تكشف دور هذه المرأة في الحياة اليومية بمختلف أبعادها، وإن كان هذا الدور متفاوتًا بين الريف والمدينة نظرًا لاختلاف التكوين الاجتماعي والثقافي.

كما استطاعت أن تكشف عن مختلف القضايا الاجتماعية التي شاهدتها الرحالة، وكانت شاهد عيان عليها.

ولقد استطاعت إظهار الدور المهم للمرأة الفلسطينية، وخاصة الريفية، التي شكّلت ركنًا أساسيًا في المجتمع بالنظر إلى ما كانت تقوم به من أعمال وواجبات تجاه أسرتها سواء داخل المنزل أم خارجه؛ ما جعل منها عمودًا فقريًا في الأسرة الريفية.

كما اتضح أيضًا أن المرأة الفلسطينية لم تكن تمتلك حرية خارجة عن المألوف من العادات والتقاليد في المجتمع الفلسطيني، وإن كان ذلك متفاوتًا بين المدينة والريف، بل اتضح هذا التفاوت بين مدينة وأخرى وبين النساء الفلاحات في المجتمع القروي نفسه، وقد ظهر ذلك بشكل جلي في أجنحة الحريم في قصور الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من جهة، والنساء الفلاحات اللواتي كن ينتمين إلى العامة من جهة ثانية، حيث تمتعن بحرية أكثر مقارنة بنساء الطبقة الأرستقراطية، غير أن تلك الحرية كانت نتيجة لطبيعة حياة الفلاحين الذين كانوا يعتمدون في حياتهم بشكل رئيس على الزراعة.

أما في المدن فقد تفاوت وضع المرأة من مدينة إلى أخرى، ساحلية كانت أم داخلية؛ إذ تبين من خلال الدراسة أن المرأة في المدن الساحلية تمتعت بقسط من الحرية مقارنة بمثيلتها في المدن الداخلية، باستثناء مدينة القدس.

وأخيرًا فقد اشتملت هذه الرحلة على معلومات غنية عن المرأة بشكل خاص، والمجتمع الفلسطيني بشكل عام، لا تتوفر في المصادر الأخرى، مطبوعة كانت أم مخطوطة، وتكون بذلك قد سدّت فجوة مهمة في تاريخ فلسطين خلال أربع سنوات امتدت ما بين عامي 1855-1859؛ وهو ما يجعل من هذه الرحلة مصدرًا أدبيًا وتاريخيًا وجغرافيًا وإثنوغرافيًا مهمًا.

الهوامش والإحالات:

(1) الشوابكة، الرحلة الأندلسية: 75.

(2) حليفي، الرحلة في الأدب: 18.

(3) نفسه: 8.

(4) الشوابكة، الرحلة الأندلسية: 304.

(5) نصار، أدب الرحلة: 132.

(6) ضيف، الرحلات: 6، 7.

(7) قنديل، أدب الرحلة: 24، 25.

(8) نواب، الرحلات المغربية والأندلسية: 18.

(9) الشوابكة، الرحلة الأندلسية : 306.

(10) وهبة، معجم المصطلحات: 13.

(11) الوعري، دور القنصليات: 105.

(12) نفسه: 139.

(13) فن، أزمنة مثيرة: 134.

(14) نفسه: 710.

(15) نفسه: 10.

(16) نفسه: 713.

(17) الوعري، دور القنصليات : 107.

(18) فن، أزمنة مثيرة، من تقديم جوني منصور: 23.

(19) روجرز، الحياة في بيوت فلسطين: 349.

(20) نفسه: 355.

(21) نفسه: 141.

(22) نفسه: 356. وتقع **قرية كفرلام** على مسافة 26 كم جنوب مدينة حيفا مع انحراف قليل نحو الغرب وترتفع عن سطح البحر 25م، وتبعد عن شاطئ البحر المتوسط كيلومترا واحدا. الدباغ، بلادنا فلسطين603. الخالدي، كي لا ننسى: 131.

(23) روجرز، رحلات ماري روجرز:356.

(24) نفسه: 19.

(25) نفسه: 19.

(26) نفسه: 20.

(27) نفسه: 31. والبغّالة هم أصحاب البغال. ابن منظور، لسان العرب: 1/ 466.

(28) نفسه: 34.

(29) **قرية يالو**: هي إحدى قرى اللطرون الثلاث التي تم تهجيرها عام 1967، تقع جنوب شرق مدينة الرملة، ترتفع عن سطح البحر 300م، وتبعد نحو 30كم عن مدينة رام الله، عرفت في العهد الكنعاني باسم أيلون ومعناها بلاطة، ثم حرف الاسم إلى يالو. الدباغ، بلادنا فلسطين: 518/4. مبارك، قطاع اللطرون: 18.

(30) تقع أراضي **الطالبية** في الجهة الجنوبية الغربية من البلدة القديمة لمدينة القدس. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذت بعض الأسر المسيحية المقدسية تقيم منازل لها فيها؛ لتُعرف المنطقة فيما بعد باسم حي الطالبية، تمكنت إسرائيل عام 1948 من احتلال هذا الحي وطرد سكانه منه. تماري، القدس 1948: 73.

(31) روجرز، رحلات ماري روجرز: 40.

(32) نفسه: 52.

(33) نفسه: 59.

(34) **قرية إرطاس:** كلمة إرطاس من أصل لاتيني Arrasium ومعناها البستان أو الجنة، وتقع على بُعد 4 كم جنوب غرب مدينة بيت لحم، وفيها أربع عيون هي: عين عطاف وعين الفروجة وعين صالح وعين البرك، ويقول الدباغ إن هذه العيون جعلت من إرطاس جنة خضراء، تكثر فيها البساتين وتزينها الأشجار المثمرة المختلفة. الدباغ، بلادنا فلسطين: 8: 480. شراب، معجم بلدان فلسطين: 111.

(35) روجرز، رحلات ماري روجرز:70.

(36) نفسه: 74.

(37) **القواس:** لغويًا هو حامل القوس، وكانت وظيفته خلال العهد العثماني تتمثل في مرافقة الأسقف أو القنصل وهي أشبه بوظيفة الحارس أو المرافق الشخصي، إضافة إلى إرساله في بعثات ومهمات خاصة لنقل الرسائل والخطابات. فن، أزمنة مثيرة: 82.

(38) روجرز، رحلات ماري روجرز: 80.

(39) نفسه: 82.

(40) نفسه: 84

(41) روجرز، رحلات ماري روجرز، ص89. وتقع قرية **الطنطورة** على شاطئ البحر المتوسط على بُعد 24 كم جنوب مدينة حيفا. وترتفع عن سطح البحر خمسة أمتار. الدباغ، بلادنا فلسطين:604/7. الصايغ، بلدانية فلسطين: 149. الخالدي، كي لا ننسى: 106.

(42) روجرز، رحلات ماري روجرز: 91. وتقع قرية عتليت على البحر جنوب مدينة حيفا على مسافة 13 كم. وترتفع 25م عن سطح البحر. الدباغ، بلادنا فلسطين: 595/7.

(43) روجرز، رحلات ماري روجرز: 98.

(44) نفسه: 124.

(45) نفسه: 157.

(46) **قرية كفر قرع:** وتقع جنوب شرق مدينة حيفا، ترتفع عن سطح البحر 125 مترًا، ويقع حولها خرب أثرية أهمها خربة أم البصل. الدباغ، بلادنا فلسطين: 643/7. الصايغ، بلدانية فلسطين: 258.

(47) روجرز، رحلات ماري روجرز: 214.

(48) نفسه: 226.

(49) **قرية صانور:** تقع جنوب غرب مدينة جنين على مسافة 27كم، وترتفع عن سطح البحر 34م. الدباغ، بلادنا فلسطين: 3/ 117.

(50) روجرز، رحلات ماري روجرز: 247. وذكر إحسان النمر أن قلعة آل جرار اشتملت على أبراج وبوابات وكان فيها نحو 60 غرفة وهي تساوي نحو 10 دونمات، غير أن المساحة العامة للمحيط تساوي 10 أمثال هذه المساحة أي 100 دونم. النمر، تاريخ جبل نابلس: 457/2.

(51) روجرز، رحلات ماري روجرز: 285.

(52) نفسه: 288. وتقع **قرية اللبن الشرقية** جنوب مدينة نابلس على مسافة 22كم، وترتفع عن سطح البحر 165 قدمًا. فيها عدة ينابيع أهمها بئر اللبن وعين السامري وعين الجديدة. الدباغ، بلادنا فلسطين: 2/ 519.

(53) **قرية الرام:** هي قرية قديمة وهي تحريف عن الرامة حيث عرفت بهذا الاسم في العهد الروماني، وتقع على مسافة 5 أميال شمال شرق مدينة القدس، وترتفع 2600 قدم عن سطح البحر. الدباغ، بلادنا فلسطين: 70/8.

(54) روجرز، رحلات ماري روجرز: 289.

(55) نفسه: 344. وتقع **قرية القباب** على بُعد 10 كم شمال مدينة الرملة وترتفع عن سطح البحر 150 مترًا. الدباغ، بلادنا فلسطين:508/4. الصايغ، بلدانية فلسطين: 289. الخالدي، كي لا ننسى: 241.

(56) روجرز، رحلات ماري روجرز: 345.

(57) نفسه: 348. وتقع **قرية حرم سيدنا علي** على ساحل البحر المتوسط شمال مدينة يافا، وتبعد عنها 18 كم. وترتفع عن سطح البحر 110 أقدام. عُرفت باسم سيدنا علي نسبة إلى ولي الله علي بن عليل المتوفى سنة 474هـ. الدباغ، بلادنا فلسطين: 4/ 249. الخالدي، كي لا ننسى: 697.

(58) روجرز، رحلات ماري روجرز: 353. وتقع **قيسارية** على ساحل البحر المتوسط جنوب مدينة حيفا، وتبعد عنها نحو 37 كم، وترتفع عن سطح البحر نحو 25 مترًا. وقد تم بناؤها في العهد الكنعاني. الدباغ، بلادنا فلسطين: 617/7. الخالدي، كي لا ننسى: 127.

(59) روجرز، رحلات ماري روجرز: 354.

(60) نفسه: 357.

(61) نفسه: 389.

(62) نفسه: 400.

(63) أحمد، تاريخ الريف الفلسطيني: 28.

(64) **قرية أبو غوش:** تقع على مسافة 13 كم غرب مدينة القدس بانحراف قليل نحو الشمال. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين:113/8.

(65) روجرز، رحلات ماري روجرز: 38.

(66) نفسه: 153.

(67) نفسه: 67.

(68) حمودة، رام الله العثمانية: 288.

(69) نفسه: 290، 291.

(70) حمودة، رام الله العثمانية: 288.

(71) **قرية عين كارم:** تقع غرب مدينة القدس على مسافة 4 كم. الدباغ، بلادنا فلسطين: 8/ 157.

(72) السكاكيني، أنا والقدس: 114.

(73) روجرز، رحلات ماري روجرز: 71.

(74) حمودة، رام الله العثمانية: 290.

(75) روجرز، رحلات ماري روجرز: 186.

(76) نفسه: 185.

(77) نفسه: 194.

(78) نفسه: 21.

(79) نفسه: 211.

(80) نفسه: 128.

(81) أحمد، تاريخ الريف: 65.

(82) روجرز، رحلات ماري روجرز: 128. أحمد، تاريخ الريف: 65.

(83) روجرز، رحلات ماري روجرز: 128.

(84) روجرز، رحلات ماري روجرز: 48. أحمد، تاريخ الريف: 65. الحربي، المرأة في نجد: 75.

(85) حمودة، رام الله العثمانية: 288.

(86) نفسه: 288.

(87) روجرز، رحلات ماري روجرز: 67.

(88) نفسه: 286. كذلك التميمي والكاتب، ولاية بيروت: 51.

(89) روجرز، رحلات ماري روجرز: 154.

(90) نفسه: 76.

(91) نفسه: 26.

(92) حمودة، رام الله العثمانية: 132، 133.

(93) روجرز، رحلات ماري روجرز: 316.

(94) **قرية بيت صفافا:** تقع جنوب غرب مدينة القدس على مسافة 8كم. الدباغ، بلادنا فلسطين: 8/ 172.

(95) **قرية المالحة:** تقع على مسافة 10كم جنوب غرب مدينة القدس، الدباغ، بلادنا فلسطين: 8/ 166.

(96) **بيت جالا:** تقع على بُعد 2 كم غرب مدينة بيت لحم. الموسوعة الفلسطينية: 8/ 443

(97) السكاكيني، أنا والقدس: 132، 133.

(98) روجرز، رحلات ماري روجرز: 185.

(99) نفسه: 111.

(100) نفسه: 108.

(101) نفسه: 109.

(102) دوماني، إعادة اكتشاف فلسطين: 78-80.

(103) نفسه: 105.

(104) روجرز، رحلات ماري روجرز: 93.

(105) دوماني، أهالي جبل نابلس: 104.

(106) روجرز، رحلات ماري روجرز: 93.

(107) فن، أزمنة مثيرة: 862.

(108) روجرز، رحلات ماري روجرز: 86.

(109) نفسه: 158.

(110) فن، أزمنة مثيرة: 862.

(111) التميمي وبهجت، ولاية بيروت: 112.

(112) روجرز، رحلات ماري روجرز: 169.

(113) نفسه: 130.

(114) نفسه: 178.

(115) نفسه: 179.

(116) نفسه: 33.

(117) نفسه: 81.

(118) نفسه: 82.

(119) نفسه: 231.

(120) نفسه: 232.

(121) نفسه: 280.

(122) نفسه: 104.

(123) نفسه: 211.

(124) نفسه: 207.

(125) نفسه:336.

(126) نفسه:362.

(127) نفسه:222.

(128) نفسه:186.

(129) نفسه:131.

(130) نفسه: 30.

(131) نفسه: 117. والأغا مصطلح من أصل فارسي ويعني السيد وقيل إن الكلمة محرفة من كلمة آقا المغولية المستخدمة صفة للعلماء، وقد استعمل الأتراك مصطلح الآغا لدلالات كثيرة غير أنه أصبح في المدة الأخيرة من العهد العثماني يطلق على الإنسان الكريم صاحب الفضيلة والمكانة العالية، كما كان يدل في الوقت ذاته على التكبر والتفاخر. صابان، المعجم الموسوعي: 15، 16.

(132) روجرز، رحلات ماري روجرز: 232، 233.

(133) نفسه:334.

(134) نفسه:334

(135) أحمد، تحليل الطرز المعمارية: 92، 93.

(136) روجرز، رحلات ماري روجرز: 247.

(137) نفسه: 227.

(138) نفسه: 270.

(139) نفسه: 270.

(140) نفسه: 162.

(141) نفسه: 158.

(142) نفسه: 170.

(143) نفسه: 116.

(144) **قرية حوارة:** تقع على بعد 9 كم جنوبي مدينة نابلس، الدباغ، بلادنا فلسطين: 2/ 358.

(145) فن، أزمنة مثيرة: 704.

(146) نفسه: 705.

(147) نفسه: 709.

(148) روجرز، رحلات ماري روجرز: 233، 234.

(149) نفسه: 385.

(150) نفسه: 118.

(151) نفسه: 118.

(152) نفسه: 110.

(153) نفسه: 110.

(154) نفسه: 176-178.

(155) نفسه: 201.

(156) يُعد التعميد عند المسيحيين مفتاح الدخول في المسيحية، وهو فريضة يتم بموجبها غسل الطفل بالماء بحيث يغطس بالماء ثلاث مرات. ينظر: السحيجي، التعميد عند النصارى: 17.

(157) روجرز، رحلات ماري روجرز: 204.

(158) نفسه: 267.

(159) نفسه: 234.

(160) شفيق، الرق في الإسلام: 9.

(161) نفسه: 64.

(162) عربيات، الرقيق والجواري: 27.

(163) روجرز، رحلات ماري روجرز: 29.

(164) نفسه: 242.

(165) نفسه: 241.

(166) نفسه: 33.

(167) نفسه: 29.

(168) نفسه: 368.

(169) نفسه: 29.

(170) نفسه: 232.

(171) نفسه: 232.

(172) نفسه: 383.

(173) **جبل الطور:** من أسمائه طور زيتا وجبل الزيتون، يقع شرقي القدس ويرتفع عنها بـ 197 قدمًا. والاعتقاد السائد بين المسيحيين أن السيد المسيح صعد من هناك إلى السماء؛ لذا فقد بنت الملكة هيلانة فوقه كنيسة الصعود. ويوجد فيه قبر الصحابي الجليل سلمان الفارسي. العارف، المفصل: 439، 440.

(174) روجرز، رحلات ماري روجرز: 334.

(175) نفسه: 118.

(176) نفسه: 118.

(177) نفسه: 118.

(178) نفسه: 119.

(179) نفسه: 119.

(180) نفسه:120.

(181) نفسه: 360، 361.

(182) نفسه: 121.

(183) نفسه: 377.

(184) نفسه: 247.

(185) تماري، أهالي جبل نابلس: 92.

(186) شولش، تحولات جذرية: 193.

(187) تماري، أهالي جبل نابلس: 152.

(188) نفسه: 92.

(189) روجرز، رحلات ماري روجرز: 63.

(190) نفسه:67.

(191) نفسه: 90.

(192) نفسه: 92.

(193) نفسه: 216.

(194) التميمي، ولاية بيروت: 51.

(195) النمر، تاريخ جبل نابلس: 307/2

(196) تماري، آخر الإقطاعيين: 5.

(197) روجرز، رحلات ماري روجرز: 247.

(198) نفسه: 227.

(199) نفسه: 228

(200) نفسه: 230.

(201) نفسه: 360.

(202) نفسه: 362.

(203) نفسه: 360.

(204) نفسه: 229.

(205) نفسه: 230.

(206) نفسه: 334.

(207) نفسه: 90.

(208) نفسه: 104.

(209) نفسه: 114.

(210) نفسه: 26.

(211) نفسه: 28.

(212) نفسه: 135.

(213) نفسه: 136.

(214) **يهود السمرة:** طائفة تقيم في مدينة نابلس، ويعتقد السامريون أنهم من بني إسرائيل من سبطي لادي ويوسف. وتعني كلمة سامري المحافظ وهم موحدون يؤمنون برسالة موسى عليه السلام وينكرون من بعده من الرسل.

الآداب للدراسات اللغوية والأدبية
مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

يتجهون في صلاتهم نحو جبل جرزيم الذي يحجون إليه كل عام. ولهم توراة من خمسة أسفار هي التكوين والتثنية والعدد والخروج واللاويون. النمر، تاريخ جبل نابلس: 2/ 49.

(215) روجرز، رحلات ماري روجرز: 259.

(216) نفسه: 259.

(217) نفسه: 259.

(218) نفسه: 210.

(219) نفسه: 135.

(220) فن، أزمنة مثيرة:537.

(221) روجرز، رحلات ماري روجرز: 108.

(222) **قرية سلوان:** تقع على بُعد 3كم شرقي مدينة القدس. الدباغ، بلادنا فلسطين: 8/ 157.

(223) روجرز، رحلات ماري روجرز: 51.

(224) نفسه: 67.

(225) نفسه: 173.

(226) نفسه: 149.

(227) نفسه: 219.

(228) نفسه: 173.

(229) نفسه: 246.

(230) نفسه: 236.

(231) نفسه: 132.

(232) الحزماوي، التاريخ الاجتماعي: 416.

(233) نفسه: 440.

(234) روجرز، رحلات ماري روجرز: 384.

(235) نفسه: 385.

(236) نفسه: 247.

(237) نفسه: 132.

(238) نفسه: 230.

(239) نفسه: 209.

(240) نفسه: 63.

(241) نفسه: 135.

(242) نفسه: 136.

(243) حمودة، رام الله العثمانية: 292.

(244) التميمي، ولاية بيروت: 62.

(245) روجرز، رحلات ماري روجرز: 215.

(246) نفسه: 216.

(247) نفسه: 51.

(248) نفسه: 136.

(249) نفسه: 209.

(250) نفسه: 210.

(251) نفسه: 259.

(252) نفسه: 222.

(253) نفسه: 386.

(254) نفسه: 386.

(255) نفسه: 111.

(256) نفسه: 135.

(257) نفسه: 51.

(258) نفسه: 216.

(259) نفسه:132.

(260) نفسه: 149.

(261) نفسه: 255.

(262) روجرز، الحياة في بيوت فلسطين: 210.

(263) نفسه: 247.

(264) نفسه: 117.

(265) نفسه: 230.

(266) نفسه: 210.

(267) نفسه: 63.

(268) نفسه: 112.

(269) نفسه: 135.

(270) القزويني، عجائب المخلوقات: 15.

(271) بخالد، تقاطعات العجائبي: 245.

(272) كيليطو، الأدب والغرابة: 68.

(273) روجرز، رحلات ماري روجرز: 215.

(274) نفسه: 215.

(275) نفسه: 219.

(276) نفسه: 227.

(277) نفسه: 228.

(278) نفسه: 229.

(279) نفسه: 230.

(280) نفسه: 233.

(281) نفسه: 236. والصولجان من صلج وتعني عصا يعكف طرفها ويضرب بها الكرة على الدواب. ابن منظور، لسان العرب: 5/ 337.

(282) نفسه: 235.

(283) نفسه: 239.

(284) وهذه العبارة جزء من نص الصلاة الربانية التي قام المسيح بتعليمها لتلاميذه، ويقول النص: "صلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملوكك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض خبزنا كفافنا أعطنا اليوم. واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضًا للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير، لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد". الكتاب المقدس، إنجيل متى، الإصحاح السادس، الآيات 9-13. إنجيل لوقا، الإصحاح الحادي عشر، الآيات 2-4.

(285) روجرز، رحلات ماري روجرز: 242.

(286) نفسه: 211.

(287) نفسه: 236.

قائمة المصادر والمراجع:

1) أحمد، طارق داود محمود أحمد، تحليل الطرز المعمارية للمباني السكنية في فلسطين في المدة العثمانية، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2008م.

2) أحمد، فتحي، تاريخ الريف الفلسطيني في العهد العثماني في منطقة بني زيد نموذجًا، المطبعة العربية الحديثة، القدس، 1992م.

3) بخالد، فتيحة، تقاطعات العجائب والغرائبي في أدب الرحلات، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، مؤسسة كنوز الحكمة، الجزائر، مج15، ع114، سبتمبر 2017م.

4) تماري، سليم، آخر الاقطاعيين في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، مج14، ع54، 2003م.

5) تماري، سليم، القدس1948 - الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2002م.

6) التميمي،محمد رفيق، والكاتب، محمد بهجت، ولاية بيروت، تحقيق: زهير غنايم ومحمد محافظة، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد، 2012م.

7) الحربي، دلال مخلد، المرأة في نجد - وضعها ودورها 1786-1932، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، 1432هـ.

8) الحزماوي، محمد، التاريخ الاجتماعي للقدس العثمانية 1850-1900، مكتبة دجلة للنشر والتوزيع، بغداد، 2020م.

9) حليفي، شعيب، الرحلة في الأدب العربي، التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.

10) حمودة، سميح، رام الله العثمانية - دراسة في تاريخها الاجتماعي 1517-1918، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رام الله، 2017م.

11) الخالدي، وليد، كي لا ننسى: قرى فلسطين التي دمرتها إسرائيل سنة 1948، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، د.ت.

12) الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، 10 أجزاء، دار الهدى، كفر قرع، 1991م.

13) دوماني، بشارة، إعادة اكتشاف فلسطين: أهالي جبل نابلس 1700-1900، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1998م.

14) روجرز، ماري اليزا، الحياة في بيوت فلسطين - رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها 1855-1859، ترجمة: جمال أبو غيدا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2013م.

15) السحيمي، سليمان سالم، التعميد عند النصارى، مكتبة دار النصيحة، المدينة المنورة، 2009م.

16) السكاكيني، هالة، أنا والقدس، ترجمة: هلا الشروف، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 2019م.

17) السلطان، فهد بن سلطان، المنهج الإثنوجرافي - رؤية بحثية تجديدية لتطوير واقع العمل التربوي، د.ن، د.ت.

18) شراب، محمد محمد، معجم بلدان فلسطين، الدار الأهلية للنشر، عمان، 2002م.

19) شفيق، أحمد، الرق في الإسلام، ترجمة أحمد زكي، مكتبة النافذة، الجيزة، 2009م.

20) الشوابكة، نوال عبد الرحمن، الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، 2008م.

21) شولش، الكزاندر، تحولات جذرية في فلسطين 1856-1882، ترجمة: كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، 1993م.

22) ضيف، شوقي، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، 1956م.

23) العارف، عارف، المفصل في تاريخ القدس، مطبعة المعارف، القدس، 1960م.

24) عربيات، غالب، الرقيق والجواري في القدس العثمانية، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، الأردن، مج23، ع4، 2017م.

25) فن، جيمس، أزمنة مثيرة: وقائع من سجلات القنصلية البريطانية في بيت المقدس 1853-1856، ترجمة: جمال أبو غيدا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2017م.

26) فهيم، حسين محمد، أدب الرحلات، عالم المعرفة، ع138، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989.

27) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، 2000م

28) قنديل، فؤاد، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2002م.

29) الكتاب المقدس، إنجيل لوقا.

30) الكتاب المقدس، إنجيل متى.

31) كيليطو، عبد الفتاح، الأدب والغرابة - دارسة بنيوية في الأدب العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006م.

32) مبارك، حسن اشتيوي، قطاع اللطرون 1948-2007. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2007م.

33) ابن منظور، لسان العرب، 9 مجلدات، دار الحديث، القاهرة، 2003م.

34) نصار، حسين، أدب الرحلة، مكتبة لبنان، بيروت، 1991م.
35) النمر، إحسان، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، 4 أجزاء، مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1938م.
36) نواب، عواطف محمد يوسف، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2008م.
37) الوعري، نائلة، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين 1840-1914، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2007م.
38) وهبة، مجدي، والمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م.